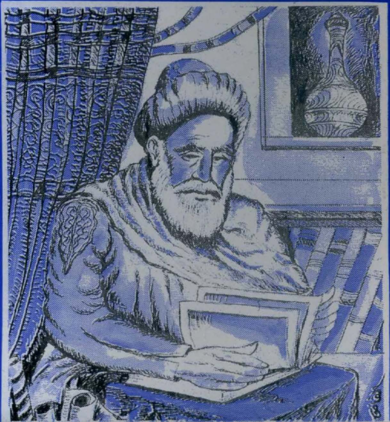
دكتور محمد عبد المنعم خفاجى

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان

وشخصيته المجهولة



دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة

الطبعة الأولى
١٩٩٦ م - ١٤١٦ هـ

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أبو الفتح الاسكندرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــــدير

ابو الفتح الاسكندرى كما يعرفه علمـاء الأدب هـو البطـل فى مقامات بديع الزمان الهمـذانى ·

وهو يقوم بالدور الرئيسى فى الأعمال الساسانية التى احترفها ، وأجاد تمثيلها ، انه هـو بطـل الرواية وصانعها ، أما الذى روى عنه كل ما قام به من بطولات مصنوعة فهـو الحارث بن هشام ·

واغلب الظن عند شتى الدارسين انهما شخصيتان أسطوريتان ، ليس لهما نصيب من الواقـع التاريخى ·

وهـذه القضية مرت عبر الأجيال دون دراسة او تحقيق ، ومر بهـا الأدباء والباحثون المعـاصرون كذلك ، دون جـديد ، ودون رأى قاطـع فيها ؟ وان كـأن احـد الباحثين المعاصرين قـد قارب الوصـول الى حلهـا والحكم فيها ، لكنـه ترك البـاب مفتوحاً ، وبنى آراؤه على الظـن والاحتمال ·· ومن عجب ان يكـون ذلك بعـد صـدور كتـابى « ابو دلف عبقرى من ينبع » ممـا يرجـح انه اطـلع عليـه ، وقـرأ ما دونتـه فيـه ·

وفى هـذا الكتاب درست هـذه القضـية من مختلف وجوهها ، وأبديت الرأى الحاسم فيها ، وهـو ما أعتز به ، وأعتبره الحل الأول والأخير فى هـذه المشكلة التى استعصى على الأجيال حلها ·

وبالله التوفيـق ··

المؤلـف

الباب الأول

فــن المقــامة

الفصل الأول

فن المقامة فى أدبنا

- ١ -

يقول الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى(١) : « المقامات المجالس ، واحدتها مقامة ، والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير ، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية : « قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضرين : من هذا ؟ فقال : شخص قد طرأ لا أعرفه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله يتبئ عن غلامته » فالمقامات جمع مقامة ، وهى : كالمقام ، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى اقام فيه ، وعلى هذا المعنى قول المسيب بن علس :

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم توسع فى استعمال اللفظ ، فانتقل الى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، وبهذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هذا المعنى أيضا ، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ، ودونها فى أماليه ، فصولا سمى كل واحد منها مجلسا على هذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » فصلا لكلام الزهد بين أيدى الملوك ، وجعل عنوانه : « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » ، وقال الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فيما قال : ويذكرون من الشعر الشاهد ، والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات .

---

(١) راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى - ١٩٥٦ .

هـذا هـو معنى المقـامة اللغـوى ، أما معنـاها الفنى فهـو هـذا الفن البليغ البديع المنمق ، الذى صيغ فى أسلوب قصصى لطيف ، ويمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، ويضـع على ألسنتهم حوارا يجتهد فيه فى التحسين والتزيين والوشى ، ويلتزم فيه السجع أو يكثر منـه ، ويودعه ما أراد لـه نوقـه من طرائف ووصـف للأخـلاق وروائع وملح وبدائع ، ونقـد للأشخاص والمجتمع ، والبـلاد والنـاس ..

ولقد كان من اثر اتصال كتاب العربية بالآداب القديمة ، وتنقلهم فى افغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من اقاصيصهم واحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث الناس باوصافهم واخلاقهم ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغـة الفارسية ، وربما كانوا يعجبون بهـا وباساليبها ، فاخـذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال والكتـابة على نمطها باللغـة العربيـة ، وقـد كان لأثر الحيـاة الفارسـية قبـل هـذا العصر دخـل فى لغة العرب ، بمـا كتبه ابن المقفع وسـهل بن هارون وغيرهما ، فظهر اثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلمـا كان هـذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب احـد الناس واخلاقه ، ويذكر بهـا بعض الحوادث والأماكن باسـلوب مسجع ظريف . وكان النثر الى هـذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ، ولم يكن الأسلوب القصصى قـد تسرب بعـد الى الكتـابة العـربية ، فلمـا كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جـديدا فى أساليب النثر العربى ، وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعـده من الكتاب أصحاب المقامات كالحـريرى وغـيره .

وواضح من المقـامات المروية عن البديع والحريرى أن الكدية (الشحاذة) أهم اغراضها ، ومن ثم قيـل عن المقامات انهـا تطلق على ما يقصه أهـل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغـة عربية فصيحة تعـد فى أسلوبها من نماذج النثر الفنى الرفيع فى الأدب العربى .

وقـد نسب الحريرى فى مقـدمة مقاماته فضل ابتداع المقامات الى بديع الزمان وعـلامة همـذان ، ومن كتـاب المقـامات بعـده : ابن نبـاته السعدى ، ابو الهيجاء الأصفهانى ، ابن الجوزى ، ابن الوردى ، الشيخ العطار ، أحمد فارس الشدياق ، اليازجى ، وعبد الله فكرى ، والمويلحى وغـيرهم ٠

- ٢ -

والمقـامات صورة للقصة القصيرة ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة وتحليل الشخصيات ٠٠ والمقامات من أولى بذور النثر القصصى فى الأدب العربى لأنها ترمي الي تصوير بعض النفـوس والشخصيات بطريق قصصى ولـولا انصراف الكتـاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر ٠٠ على أن أسلوب المقامات انتشر بين الناس وذاع أثره لولوع الناس بالصناعة اللفظيةويشير أسلوب المقامات الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية،وان كانت من ناحية الموضوع محاولة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ٠ وتعتمد القصة الناجحة اكثر ما تعتمد على العقدة والعرض وعنصر الحركة والمفجأة والوقائع المثيرة ، والتفاصـيل الدقيقة وتسـجيل الـوان من الحيـاة الاجتماعية وهـذه الأصول متوفرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصـة من اوسـع الأبواب ٠ وكان من الطبيعى أن توجـد المقامة فى الأدب العربى فهى قصة تروى ، ومن طبيعة الانسان أن يروى قصصه وقصص الآخرين ٠ وقـد سـاعد رقى النثر الفنى فى القـرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة باسلوب رائع جـذاب وان كان البعض يقـول أن المقـامات ربمـا كانت مقتبسة من أدب فارس ، ولكن البعض الآخر يؤكـد على ان الأدب الفارسى لم يعرف فن المقامة قبل البديع ٠٠ ولا فى عصره ٠٠ وانمـا عرفت بعـده بقـرن من الزمان ٠٠ وأولى مقامات كتبت بالفارسية كانت للقاضى حميد الدين البلخى ٠ ويقول بعض النقاد الفارسيين أن لفظ مقامة هـو من اختراع بديع الزمان ٠ ويقول بعض المستشرقين أن اساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان قـد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، ويذكر آخرون

ان قصص جحا من الآداب الفارسية والتركية هى التى أوحت لبديع الزمان بالمقامات • وهـذا الكلام كله يحتاج الى دليل فالواقع ان الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية فى المجتمع العربى هى التي أوحت الي بديع الزمان بانشاء القصة القصيرة وكتابتها •

والحوار فى المقامة عنده يدور بين رجلين هما : عيسى بن هشام الراوية وأبو الفتح الاسكندرى البطل •• كلاهما شخص خيالى كما يقول أن عيسى بن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، وموضوع المقامات يتناول نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وتصوير حياة المسلمين الاجتماعيـة والعقليـة فى هـذا العهـد ، ولعـل « البـديع » كان يقصـد بمقاماته الى كتابة نمـاذج ادبيـة رائعـة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية والمقامات تعكس قـدرة على الصياغة واختيار الألفاظ والتانق فى الجمل والتعبير ، الفاظها مختارة عـذبة ينـدر فيها الغريب واسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق وغير ذلك من الوان البديع ، ويضمنه ما يناسب المقام من قرآن او حديث • ولكن يؤخـذ عليها ان الجانب الفنى فيها للقصـة غير متكامل فالحبكـة القصصية ضعيفة والحوادث غير متسلسلة •

- ٣ -

وقـد ادى ظهـور فـن المقامات فى الأدب العربى الى غنـائه فى الألفاظ والأساليب والأخيـلة والمعـانى ، واضافت المقامات الى الأدب العربى فنـا ادبيـا جـديدا لم يكن لـه وجـود مـن قبل هـو فن القصة القصيرة ، وقـدمت المقامات نمـاذج ادبيـة جميلة للأدباء ليحاكـوها ويسيروا على منوالها ممـا يساعد على قـوة الملكة والموهبة وقـد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغـة واساليبها ومن صور الأداء والتعبير فيها ، وكذلك فان كتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها •• كل ذلك كان ثروة للغـة العربية وآدابها ، وقـد أسهمت المقامات فى بنـاء النهضة الأدبية الحـديثة فى مصر والعالم العربى • كما ظهـر فـن ادبى جـديد متاثر بفـن المقامة وهـو ضرب من الانشاء فيه تشابه مـع المقامة وأن كان ليس منها اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى وهـو مقالات قصار تعتمد على الايجاز وتقصـد الى

الوعظ الحكمة تقدم النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ولا تحتوى على الحوار او البطل .

وقد نمت المقامات وازدهرت فى بلاد خراسان وما وراء النهر ، تلك البلاد التى كانت قبل الفتح الاسلامى جزءا من الامبراطورية الفارسية ، فلما دخلها العرب وحكموها نشروا فيها دينهم ولغتهم وثقافتهم ، فانجبت فحول العلماء والأدباء والشعراء . وقد اشتملت خراسان فى العهد الاسلامى على اربعة اقاليم عواصمها « نيسابور » و « مرو » و « هراة » و « بلخ » . وكانت هذه الاقاليم تحت حكم اربعة من آل سامان ، وهم من الفرس الذين عرف المأمون فضلهم ونبلهم ، فعينهم عليها حكاما ، وعرفت هذه بالدولة السامانية .

وفى عهد الدولة السامانية ظهرت حركة ادبية قوية من شعر ونثر فنى لعدد كبير من الأدباء يذكر التاريخ اسماءهم منسوبة الى بلادهم التى نشأوا بها ، فنقرأ اسماء « البلخى » و « الخوارزمى » و « الفارابى » و « الترمذى » و « البخارى » و « النيسابورى » و « الزمخشرى » وسواهم . وكانت بخارى مطلع نجوم الأدباء والشعراء والكتاب آنذاك ..

وقد صال « بديع الزمان » وجال فى كتابة المقامات ، واملى اربعمائة مقامة فى الكدية (الاستجداء) ولم يعثر منها الا على ثلاث وخمسين مقامة . وتوالى بعد « البديع » كتاب المقامات ومنهم ابن « نباتة السعدى » ، و « احمد بن فارس » ، و « السيوطى » ، و « الزمخشرى » وغيرهم ، ولكن لم يشتهر منها سوى مقامات « الحريرى » التى تعادل مقامات « بديع الزمان » فى خفة الروح ، وجمال الأسلوب ، وطلاوة التعبير .

ويقول الشريشى شارح مقامات الحريرى : « المقامات : المجالس واحدتها مقامة ، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس »(١).

---

(٢) شرح الشريشى لمقامات الحريرى ص ١٠ ط بولاق .

وكان بديع الزمان الهمذانى أحد فحول المقامات الانشائية يعنى من كلمة « مقامة » معنى مجلس ، فقد جاء فى المقامة الوعظية ، عن عيسى بن هشام (وهو راوى مقاماته) : فقلت لبعض الحاضرين من هذا قال : غريب قد طرأ لا اعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبىء بعلامته ٠

والمقامة بهذا المعنى تتواءم كل المواءمة مع المعنى الأدبى الذى يرمى اليه الأدباء وهو الأسلوب الفحل والتعبير الجزل الذى ينتظم عقده الفاظاً غريبة قوية ومعانى دقيقة فنية والواناً من السجع والمحسنات البديعية وروائع الشعر والحكم والأمثال يروى على لسان امرىء خيالى ٠

ـ ٤ ـ

وقد ذكر أبو اسحق الحصرى صاحب زهر الآداب فى ترجمته بديع الزمان الهمذانى أن أول من وضع أسس المقامات هو ابن دريد قال « ولما رأى البديع أن أبا بكر محمد بن دريد الأزدى أغرب باربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره ، وابداها للأبصار والبصائر ، واهداها للأفكار والضمائر فى معارض أعجمية والفاظ حوشية ، فجاء اكثرهما مما تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ تصرف فى ألفاظها ومعاً ما فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها باربعمئة مقامة فى الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر ابا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافسان السحر »(٣) ٠

وروى الدكتور زكى مبارك أن البديع عارض ابن دريد مقامات تدانى فى عددها مقامات ابن دريد اذ يقول « أن بديع الزمان عارضه

(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٢٣٥ ٠

بمقامات أربعين انشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب فى الكمية »(٤) ويفهم من قول الحصرى » « وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض اعجمية » ان ابن دريد انشأ احاديثه فى بيئة فارسية . وأن البديع حين عارضه سمى احاديثه مقامات ، وصنيع البديع الهمذانى فى هذا الفن أجلى وأروع ، والذين انشأوا بعد ذلك مقامات لم يصدروا الا عن ورد الهمذانى فتاثروا بطريقته واحتطبوا فى حبله .

ويذكر جورجى زيدان ان أبا الوليد احمد بن فارس الرازى الأديب اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صنع مقامات فيقول : « وله التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء صنعته وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانى »(٥) بيد أن مقاماته ضاعت كما ضاعت مقامات ابن دريد .

وضياع مقامات ابن دريد وابن فارس جعل اكثر المؤرخين يعدون البديع أبا عذرة المقامات ومفترع بكارتها ، ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية(٦) وأدار الحديث بين شخصين ، جعل احدهما بطلا وهو أبو الفتح الاسكندرى ، والآخر راوية وهو عيسى بن هشام ، وعدد مقاماته التى بين أيدينا خمسون مقامة اجاد فيها الحلة ربطتها ومربالها ، ثم جاء بعد الهمذانى ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ فدبج مقامات لم يتح لها ان تبلغ شأن مقامات البديع ولم تحظ بشهرة أو اعجاب ، ثم وضع ابو القاسم البغدادى بعده مقامات لم تلبث أن ذهبت صرخة فى واد واخنى عليها الذى اخنى على لبد(٧) ، ثم جاد الزمن بابى محمد القاسم ابن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فتفتحت اكمام بلاغته عن خمسين مقامة ، اعتمد فى تشييد صرحها على اديبين ـ على غرار الهمذاني ـ احدهما البطل والآخر الراوية أما البطل فليس خياليا ، وانما هو

---

(٤) النثر الفنى جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٠٩ ط دار الهلال سنة ١٩١٢ .

(٦) الكدية : معناها التسول .

(٧) ويظن أن أبا القاسم البغدادى هو كناية عن أبى حيان التوحيدى (ت ٤١٣ هـ) فهو صاحب هذه المقامات وصانعها .

شخصية لها ظل فى واقع الحياة ، فقد اتفق أن قدم البصرة اعرابى فصيح يسمى ابا زيد السروجى فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، ونسب اليه القيام بادوارها ، وأما الراوى فهو شخصية خيالية محضة(٨) ، ويسمى الحارث بن همام ويتغيا بذلك نفسه ، وقد شاعت مقامات الحريرى وطبقت شهرتها الافاق وحظيت بالقبول والوفاق وهزجت بها العصور وتغنت بها الدهور .

وجاء بعد الحريرى ادباء دبجوا مقامات لم يتح لها الشهرة وكانت أدنى الى المقالة منها الى المقامة مثل جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ وسمى مقاماته «اطباق الذهب» وهى حكم ومواعظ موجزة لا تمت الى القصة بوشيجة وليس لها بطل ولا راوية وقد عارضه شرف الدين الأصفهانى سماها « اطواق الذهب » .

— ٥ —

وكان كتاب المقامات فى هذه الآونة يجيدون الصنعة البديعية ويتجلى فى ادبهم طابعها ، وكانوا ينشئون المقامات للمفاخرة والتباهى بالتضلع فى اللغة والأدب والبراعة فى الغوص الى أعماق اللغة واستخراج دورها ولآلئها ، والتحليق فى الآفاق لاصطياد الشوارد والأوابد من الكلمات الغريبة والعبارات الفحلة والأساليب الجزلة ، وجورجى زيدان يرى أن « المراد بالمقامات فى الأكثر التفنن فى صناعة الانشاء » وذكر الحريرى انه انشأها استجابة لرغبة من اشارته حكم وطاعته غنم ، وتلا فيها تلو البديع الذى عزا الى ابى الفتح الاسكندرية نشاتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تعرف(٩) ..

ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية وجاء مقامات الحريرى

---

(٨) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(٩) مقامات الحريرى ص ٥ .

على هذا الغرار ، وكانت الكدية رائجة السوق فى هذه الأونة ، ولعل السبب هو ظلم الحكام وطغيانهم وفساد النظام الاجتماعى فى القرن الرابع والخامس .

وهكذا كانت المقامات مظهرا من مظاهر النشاط الأدبى الذى عبق أرجه وتضوع شذاه فى القرن الرابع الهجرى ، فان الكتاب تباروا بأفراس مضمرة فى حلبة الكتابة واقتعدوا غاربها ومتحوا من ينابيعها اللغوية .

فتجلى أثر ذلك فى ادبهم بهذه المقامات التى جاءت عقدا خلابا يزين جيد بنت عدنان ويخلب اللب والوجدان بما حفلت به من الكلمات اللغزية والفقرات القوية والأشعار الشاغرة والأمثال السائرة والحكم الرشيقة والعظات الأنيفة وبنوع خاص مقامات الحريرى التى أسترعت الأنظار واستلفتت الأفكار ، واشرابت اليها اعناق الظامئين ألى الأدب وعشاق الغريب فى لغة العرب واتخذوها ينبوعا ثرا للألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة التى حافظت على ثروة اللغة وكانت موسوعة ادبية ينهل الظامئون الى الأدب من ينابيعها الثرة فينقعون الغلة ويشفون العلة .

- ٦ -

وكانت المقامات ارهاصا بتبلج اصباح القصة العربية فانها - فى الواقع - ليست سوى قصص قصيرة أشبه بالقصص التى تسمى عند الفرنج الدراما ، وقد تنيل طريقتها الأدباء ترفعهم نجاد التوفيق حينا وتخفضهم وهاد الأخفاق حينا آخر ، حتى كانت آخر المحاولات الموفقة على يد محمد المويلحى حين أخرج لنا كتابه الرائد « حديث عيسى بن هشام » فى أسلوب قصصى طريف يطوف بمحراب السجع فى كثير من التعبير ويجنح عن الوعورة فى كل تصرير وجعله على لسان راوية اتخذ اسمه عنوانا للكتاب ، فجاء صورة جلية للمقامات ، وان اختلف عنها ببضاضة الأسلوب والزهد فى الغريب .

ولعل من اروع المقامات التى حفل بها العصر الحديث مقامات ناصف اليازجى التى اسماها « مجمع البحرين » والتى بلغت ستين مقامة أستهلها بالبدوية واختتمها بالمقامة المقدسة وقدم لها فقال « اننى قد تطفلت على مقام اهل الأدب ، من ائمة العرب .. الى سهيل بن عباد ، وكلاهما « هى بن لي » مجهولة النسبة والبلاد ، وقد تحريت بتلفيق احاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب وقبست وقائعها الى ميمون ابن خزام ان اجمع فيها ما اسطعت من الفوائد والقواعد والغرائب والشوارد والأمثال والحكم والقصص التى يجرى بها القلم وتسعى لها القدم الى غير ذلك من نوادر التركيب ومحاسن الأساليب ، والأسماء التى لا يعثر عليها الا بعد جهد جهيد » .

ونحن اذا عرفنا أن القصة تعتمد على عنصر الحركة والمفاجآت والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل صور من واقع الحياة الاجتماعية ، الفينا أن كثيرا من هذه السمات يتجلى فى كثير من هذه المقامات .

الفصل الثانى

رائد فن المقامة

- ١ -

ينسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداء المقامات الى بديع الزمان ، وعلامة همذان .

وكذلك الثعالبى يجعل البديع ابا عذرتها واصل نشاتها .

ولكن الحصرى صاحب « زهر الآداب » يقول : ولما راى البديع ابا بكر بن دريد أعرب باربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشيه ، عارضها باربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنها(١) . ويقول الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا الكلام : مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وانه حاكى فيها ابن دريد فى أحاديثه ، ولكن لا ينفى ذلك ان البديع له فضل فى نشاتها .. وظاهر أن هذه الأحاديث هى ما دونه صاحب الأمالى فى كتابه من احاديث ومجالس لغوية يرويه عن ابن دريد ، ويذهب البعض الى أن هذه الأحاديث المدونة فى « الأمالى »(٢) مصنوعة منتحلة على ابن دريد ، والبعض الآخر يذهبون الى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صورا غريبة تروى وتحكى وتحتذى ردا على

---

(١) ١ : ٢٣٥ زهر الآداب . راجع كتاتى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى .

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالحصى الذى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد مستجديا ، مما يشبه مقامات عيسى بن هشام ، بالمساجد مكديا .

الشعوبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحيون لغتهم وادب بلادهم القديم في عصر ابن دريد ، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم(٣) . وينفي باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع(٤) . وكان ابن دريد كاتبا لآل ميكال ، وكانوا ولاة على فارس .

...

وذهب أحد الباحثين الى أن أبا المطهر الأزدى هو صاحب « حكاية أبي القاسم البغدادى » وأنها هي الأصل الذى احتذاء البديع في مقاماته ، وأن الأزدى هو مبتكر فن المقامة(٥) ، وشخصية أبي القاسم البغدادى في حكايته هي شخصية أبي الفتح الاسكندرى . وذلك مما يثبت لنا عدم صحته .

ـ ٢ ـ

ويروى لابن فارس الأمام اللغوى المتوفي عام ٣٩٠ هـ مقامات ، ويقول فيه جورجى زيدان : « له فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليها اشتغل بديع الزمان . تلميذ ابن فارس » ويقول فيه ابن خلكان : لابن فارس رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة اقتبس منها الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطبية .

ثم جاء بديع الزمان ، فرويت له خمسون مقامة ، والراجح أنه أنشأ أربعمائة مقامة ، على ما روى الثعالبى وياقوت وابن خلكان ، ويؤكد ذلك البديع نفسه فى رسالته الى أبي المظفر ، حيث يقول : « ومن أملي من مقامات الكدية أربعمائةمقامة لا مناسبة بين المقامتين

---

(٣) ص ١٣٧ دراسات فى الأدب .

(٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة .

(٥) يبدو أن ذلك غير صحيح وأن صانع « حكاية ابى القاسم البغدادى هو أبو حيان التوحيدى .

لفظا ومعنى ، حقيق الانهاج لكشف غيربه »(٦) ، والظاهر أن اكثر مقامات البديع قد ضاع ، ولم يبق الا ما تضمنته متعته المطبوعة .

ومن كتاب المقامات بعد البديع : ابن نباته السعدى م ٤٠٥ هـ ، والحريرى م ٥١٦ هـ ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى ألف مقاماته عام ٥٤٩ هـ وتوفى فى القرن السادس ، وكذلك ابن الجوزى م ٥٩٧ هـ ، ثم ابن الوردى ، والشيخ العطار ، وأحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجى ، وعبد الله فكرى ، وسواهم .

- ٣ -

والمقامات هى صورة للقصة القصيرة ، ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة ، وتحليل الشخصيات(٧) .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي لأنها ترمي الي تصرير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ، ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر القصصى الذى يصور حياة النفوس والاجتماع . على أن أسلوب المقامات تمشى في الأدب العربي ، وذاع أثره فى بلاد المشرق والمغرب ، لو لوع الناس بالصناعة اللفظية .

ويشير أسلوب المقامات ـ على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم ـ الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غلبا ، وانها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلا اثر جيل ، من استمساك فى الأساليب ، الى هلهلةوركاكة جريا وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض .

---

(٦) ٢٢٧ رسائل البديع .

(٧) ١ . ٢٠٧ النثر الفنى لزكى مبارك .

وتعتمد القصة الناجحة اكثر ما تعتمد على العقـدة والعرض ، وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل الوان من الحياة الاجتماعية ٠٠ وهـذه الأصول متوافرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ، ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية ، والأسـد وسواهما(٨) ٠

- ٤ -

ولكن لمـاذا نشأ فـن المقامة فى الأدب العربى ؟

١ - انه لمن الطبيعى أن توجـد المقـامة فى الأدب العربي فهي قصة قصيرة مسطرفة تروى ، وحوار يؤثر ، ومن طبيعة الانسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين ، وقـد ساعد رقى النثر الفنى في القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة باسلوب رائع جـذاب مشرق ، ومن تمـام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته فى الكدية، وقلده فى ذلك الحريرى وسواه ، والحريرى كذلك يقلـد البديع فى فن المقامة اذ انشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع(٩) ٠

٢ - ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من اصـل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفـون أن تكـون المقـامات قـد وجـدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، اذ لم تعرف المقـامات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وانما عرفت بعـده بقرن ونيف ، وأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميـد الدين البلخي الذى بدأ بانشائها عام ٥٥١ هـ ، وتوفى عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م كما يقول براون ،

---

(٨) راجع ٢٧٩ وما بعـدها - بديع الزمان للشكعة ٠

(٩) سبق ان قلنا ان البديع كتب اربعمائة مقامة ، ويرجح البعض انه لم يمل الا اربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الاربعين ، وهـذا خطـأ ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون فى طبعـة الشيخ محمـد عبده ، واحـدى وخمسون فى طبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى طبعة اخرى ، وقـد اسقط الامام محمد عبده المقامة الرصافية لمـا اشتملت عليه من فحش ومجون ٠

ويؤكد محمد تقى بهار فى كتابه « تاريخ تطور النثر الفارسي » أن لفظ مقـامة من اختراع البديع وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان لـه صدى فى الفارسية ، وأن حميد الدين قلـد البديع والحريرى فى مقاماته • ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين هـــذه(١٠) •

٣ ـ يذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود ، وقصـة لقمان ، قـد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحـا فى الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهمات البديع بفن المقامات •• وهـذا استنتاج لا يؤيده الدليل ، فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية ، والأدبية والفنية فى المجتمع العربى أوحت الي كاتب عربي هـو البديع بإنشاء القصة الصـغيرة وكتـابتها •

ـ ٥ ـ

سمات مقامات البديع :

١ ـ الحوار فى المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما : عيسى ابن هشام الراوية ، وابو الفتح الاسكندرى البطل • وكلاهما شـخص خيالى مجهول كما يقول الحريرى ، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى ابن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، ومنهم مؤلف « تاريخ همذان » أبو شجاع شيرويه م ٥٠٩ هـ ، وينقـل ذلك عنه ياقـــوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم نشأ من قـــول البـديع فى مطلع مقاماته : حـدثنا عيسى بن هشـام •

٢ ـ وموضوع مقامات البديع هـو الكدية ، ولكنها تتناول مـــع ذلك نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع ، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية ، والعقلية فى هـذا العهد ، تصويرا رائعا .

---

(١٠) راجـع ٢١٢ ـ بديع الزمان للشكعة •

٣ - ولعل البديع كان يقصد بمقاماته الى كتابة نماذج ادبية فى رائعة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية ، او لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب ، واختيار الألفاظ ، والتانق فى الجمل والتعبير . فالفاظها مختارة عذبة ، يندر فيها الغريب ، وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق ، وغيرها من الوان البديع ، ويضمنه بما يناسب المقام من : قرآن او حديث أو حكمة أو مثل أو شعر . ولكن يؤخذ عليها ان الجانب الفنى فيها للقصة غير متكامل ، فالحبكة القصصية ضعيفة ، والحوادث غير متسلسلة ، والحوار ينقصه التشويق ، والعقدة والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة أو معدومة .

- ٦ -

مقامات الحريرى :

١ - وقد انشأ الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات البديع ، وبناها على الكدية ، كما فعل البديع ، ويقول فى مقدمتها : « وانشات على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة ، تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحيرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما امليت جميعه على لسان أبى زيد السروجي(١١) ، وأسندت روايته الي الحارث بن همام البصرى .

---

(١١) هو فيما يقال : المطهر بن سلام البصرى النحوى م ٥٤٠ هـ ، لزم الحريرى وتادب عليه وتخرج به وجعل مقاماته رواية على لسانه ، أما الحارث ابن همام فيعنى به نفسه ، وقيل ان الحريرى ذكر ان السروجى كان شحاذا بليغا وحكيما مليحا ، ورد من البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلم ثم سال الناس .

٢ - نالت مقامات الحريرى فى عصره وبعد عصره شهرة فائقة ، حتى قال فيها ياقوت فى (معجم الأدباء) : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الالفاظ وانقادت له جوامع البراعة ، حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار الفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، ولا يرد فى قوله ، لا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعد الصيت ، والاتقان فى استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت واكثر » ، ولمكانته صارت نموذجا فنيا تقتدى به الشعراء والأدباء فى صناعة الانشاء ، ويحفظه المتادبون والشداة ، كسبا للموهبة وتنمية للذوق .. وشرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشى م ٦١٩ هـ ، وعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، وابن الأنبارى م ٥٧٧ هـ ، وابن الخشاب م ٥٦٧ هـ ، وسواهم .

٣ - ويذكر الحريرى أنه الفها استجابة لمن اشارته حكم وطاعته غنم ، وقد اختلف فى تفسير ذلك ، فقيل هو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى ، أو شرف الدين انوشروان ابن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، أو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد ايضا كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريرى ، أو عامل البصرة وواليها فى بعض نقول الشريشى ، أو هو أحد أعيان البصرة فى نقل آخر له .

٤ - والموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، هي كتلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله ، من نقد وحوار أدبى ، وهداية وارشاد ، وجدل وحجاج ، ومعاياة والغاز ، مع ما يستتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، واخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان ، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين ، والغزاة ، وأبناء السبيل ، والأعراب ، والحواة ، والسحرة ، والمشعوذين .

وقد اربى الحريرى فى ذلك على البديع فتزيد عليه في باب الالغاز بما اقتبسه عن ابن فارس ، من المعاياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها ، كنشاء رسالة تقرأ من اولها بوجه ، ومن آخرها بوجه ، او رسالة تقرأ ردا وطردا فلا يحيلها الانعكاس ، او رسالة تتكون من كلمات معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من أولها الى آخرها ، أو رسالة يراعى فى تاليفها تتابع الاهمال والاعجام بين الحروف من غير اخلال ، الى اشباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيد ، ولا يجدى منه المعنى أو اللفظ أى جدوى ، اللهم الا الضعف والتكلف الممقوت ٠

٥ - والصنعة البديعية عند الحريرى متكلفة ، فقد أجهد فيها نفسه ، وأعمل من أجلها خاطره ، وتأنق كل التأنق فى اختيار جملها ، ورصف أساليبها ، واكثر فيها من البديع والوشى والزينة كثيرا ، وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس ، والتورية والطباق ، ولم يبال بالغريب من الألفاظ يتصيده ، والحوشى يستعمله ، مع ما اورد فيها من حكمة ومثل ، وما ضمن من شعر ، وما اقتبس من قرآن وسنة ، وقد أرهقت الصنعة معانيه ارهاقا شديدا ٠

- ٧ -

وهكذا اضافت المقامات الى الأدب العربى فنا أدبيا جديدا لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة ٠

وقدمت المقامات نماذج أدبية جميلة للأدباء والمتأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها ، مما يساعد على قوة الملكة والموهبة ٠

وقد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغة وأساليبها ، ومن صور الأداء والتعبير فيها ٠

وكتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ، كل ذلك كان ثروة للغة العربية وأدابها ٠

وقد اسهمت المقامات فى بناء النهضة الأدبية الحديثة

فى مصر والعالم العربى ، اذ كانت المقامات من أوائل ما طبع في مصر ، فتداولتها الأيدى ، وتناولها القراء يتأدبون بها ، ويتخرجون عليها فى صناعة النثر .

وقد ظهر فن أدبى جديد متأثر بفن المقامة ، وهو ضرب من الانشاء فيه مشابه من المقامة ، وان كان ليس منها ، اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى ، وهو مقالات قصار ، تعتمد على الايجاز ، وتقصد الى الوعظ والحكمة ، وتسدى النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ، وليس فيها حوار ولا لها راوية ولا بطل ، ولا تساق لغرض الكدية ، وهذا الفن نجده فى مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهانى ، وكتاب أطباق الذهب للزمخشرى ، وأسواق الذهب لأحمد شوقى .

وللمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة فى اللغة والأدب ، اذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات اثر على فن الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين والشداة ، وأشاعت فن الأحاجى فى الألغاز في الأدب وأبعدت الشباب .

وهذا يدلنا على فضل البديع وسبقه ، والحقيقة ان مقامات البديع اكثر انطباعا ، واشد انسجاما ، وابعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة . اما مقامات الحريرى فابدع فنونة ، وابرع خيالا ، والطف فكاهة ، واكثر امثالا ، وقد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع ، وترجمت الى اللغات الأوربية .

والحريرى على اية حال اشهر من كتب المقامات بعد البديع وقد نسج على منواله ، وكرر اغراضه باسلوب جزل ، مع اكثار من الكلمات الحوشية ، وترديه للشعر القديم .

الفصل الثالث

ابن دريـد ليس المبتكر لفن المقامات

لقـد اشرت الى ذلك اشارات صغيرة فيما سبق ، وحـول ذلك دارت بحـوث ودراسات كثيرة ، بين من يجعـل ابن دريد صاحب الفضل الأول فى نشأة فن المقامة ، ومن بينهم د٠ شرقى ضيف ومن ينفى ذلك ، ومن بينهم الأستاذ عباس الصالحى فى كتـابه « فـن المقـامة » ٠ وقـد كتب الأستاذ محمـد السيد الدغيم حـول ذلك فى جريدة الحياة العربية التى تصـدر من لنـدن مقالا فى ١٩٩٢/٧/٧ ينفى أن يكون لابن دريد فى نشأة المقامة اى فضـل ٠

يقـول الأستاذ محمد السيد : لقـد ترجم لابن دريد الكثير من المؤلفين ، كطبقات الشـافعية للسبكى (ت ٧٧٣ هـ/١٣٧١ م) ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شبهة (٧٧٩ ـ ٨٥١ هـ/١٢٧٧ ـ ١٤٤٨ م) الذى قال فى المجلد الأول ، ص ١١٦ ، الترجمة رقم ٦٣ « ابو بكر الأزدى البصرى ٠٠٠ كان رأسا فى اللغة وأشعار العرب ، ولـه قصيدة طنانة يمـدح بهـا الشافعى رضى الله عنه ٠٠٠ قال الدارقطنى : تكلموا فيـه ٠٠٠ » ٠ وذكـره الامام الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقـد الرجال » ، فاكد رواية الدارقطنى، واضاف : « وقال أبو منصور الأزهرى اللغوى : دخلت على ابن دريد، « فرايته سكران » ، وتوسع فى ترجمة ابن دريد الوزير جمال الدين على بن يوسف القفطى (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م) فى كتابه « انبـاه الرواة على انباه النحاة » فسـاق نسبه حتى أوصـله الى : يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وذكر أنه ولد فى « البصرة فى سكة صالح ، سنة ٢٢٣ هـ ، ونشأ بعمان ، وتنقل فى الجزائر البحرية ما بين البصرة وفارس ، وطلب الأدب ، وعلم نحو اللغـة » ٠ كما ذكر القفطى سؤالهم للدارقطنى ، عن ابن دريد « أثقـة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيـل : انه كان يتسامح فى الرواية عن المشايخ ، فيسند الى كل واحـد ما يخطر لـه » ٠ وذكـر القفطى الأزهرى : « دخلت على ابن دريد فرايته سكران ، فلم أعـد اليه » ٠ كما ذكر رواية ابن شاهين

(٢٩٧ - ٣٨٥ هـ/٩١٠ - ٩٩٥ م) الذى قال : « كنا ندخل على ابن دريد ونستحى مما نراه من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى ، وقد كان جاوز التسعين سنة » .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما سلف أن ابن دريد كان من علماء اللغة الشعراء ، ولم يكن ثقة فى الرواية ، وهذا ظاهر فى ميزان الاعتدال ، وتاريخ الاسلام للذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٧٤ م) ولسان الميزان - ج/٥ ص ١٣٢ - ، لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ هـ) ، وغير ذلك من الكتب الموثقة .

ولابن دريد من الكتب :

(١) الجمهرة فى اللغة ، (٢) كتاب السرج واللجام ، (٣) كتاب السحاب والغيث ، (٤) كتاب الملاحن ، (٥) كتاب الاشتقاق ، (٦) كتاب المجتبى ، (٧) الأخبار المنثورة ، (٨) رسالة من أفعل وفعلت (٩) أخبار أبى بكر بن دريد . وله كذلك المقصورة ، وله مرثية للشافعى (٢/١٩٥ تاريخ بغداد) .

وقد ذكرها ابن قاضى شهبة فى طبقات الشافعية ، ج ١/ ص : ١١٦ ، كما أوردها الاسنوى (٧٧٢ هـ/١٣٧١ م) فى كتابه طبقات الشافعية ص : ١٨٥ أيضا . وله مؤلفات أخرى :

(١) كتاب الخيل الكبير ، (٢) كتاب الخيل الصغير ، (٣) كتاب الأنواء ، (٤) ، كتاب المقتبس ، (٥) كتاب رواة العرب ، (٦) كتاب ما سئل عنه لفظا فأجاب عنه حفظا ، (٧) كتاب اللغات ، (٨) كتاب السلاح ، (٩) كتاب غريب القرآن الكريم - لم يتمه ، (١٠) كتاب أدب الكاتب ، على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده من المسودة ، فلم يخرج ، (١١) كتاب التوسط ... هذا ما ذكره القفطى فى أنباه الرواة ج ٣/ص ٩٦ - ٩٧ ، اضافة الى ما ذكره الكاتب فى مقاله ، كما نجد كتبا أخرى فى فهرست ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) ، ص ٦١ - ٦٢ ، هى : (١٢) كتاب الوشاح ، وسماه صاحب

كشف الظنون : الوشاح فى الآداب ، (١٣) كتاب المقتنى ، (١٤) كتاب تقويم اللسان ، (١٥) كتاب المطـــر ، (١٦) كتاب الامالي ، ذكره حاجي خليفة فى كشف الظنون وقال : ان السيوطى اختصره فى كتاب سماه : « قطف الوريد » واضافة الى ما سبق نذكر : (١٧) ديوانه ، وقـد جمعه السيد محمد بدر الدين وطبع فى مطبعة لجنة التاليف والترجمة بمصر سنة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦ م ٠

وهـذا الايضـاح فى تبيين ما اغفـله الكتاب او أكثر الباحثين من مؤلفات ابن دريد ، ومن اقوال العلمـاء فيه ، حتى نتمكن من تقـديم صورة واضحة عن ذلك الأديب اللغوى الذى قيل ان لـه اربعين مقامة فى روايات أبى على القالى : « حـديثا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : ٠٠٠ » وما ذكره الحصرى (ت ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م) فى كتـابه زهر الآداب (ج ٢٠٧/١) ٠٠ وهـذه حجة ضعيفة ، فلربما وردت تلك الأحاديث « الأقاصيص » فى مؤلفـاته العـديدة ، ولا يشترط ان يكون الف كتـاباً خاصـا بذلك ، ورواية الحصرى ليست حجة لبعـد عهـده الزمنى ، ومكان اقامته الجغرافى ، وعـدم توثيق الرواية عن السابقين ٠

وكتب الدكتور زكى مبارك مقالا عنوانه : : اصلاح خطأ قـديم مرت عليه قرون فى نشأة فن المقامات » نشره فى مجلة « المقتطف » عـدد : نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٠ م ، الصفحة : ٤١٨ - ٤٢٠ ، واتهم زكى مبارك الحريرى فى اذاعـة غلط نسبة ابداع فـن المقامات الى الهمذانى ، وقال : « وصلت الى ان بديع الزمان ليس مبتكر فـــن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ » ٠ واعتمـد مبارك على ما جاء فى « زهر الآداب » للحصرى ، وذكر « دهشـة المسيو مارسيه » حين عرض عليه ذلك النص فى باريس ، كما ذكر دهشة طـه حسين الذى قال لـه : « ارجـع الى كتـاب الأمالى للقالي ٠٠٠ » فرجع اليه مبارك وذكر « حـديث البنات اللاتى وصفن ازواجهن » (ج ١ ص ١٧) وحـديث العاشق الجميل (ج ١/ص ٣٨) وقصـة الكـاهن (ج ١/ص ١٣٤ طبـع بـولاق) والرواد الـذين أرسلتهم مذحج ، وقصة أبى نواس فى الحج ، واشار الى ان أصول

فن المقامة لم تكن فارسية » كما أشار الى ذلك فى بعض محاضراته الدكتور احمد ضيف » .

وكتب مبارك مقالا آخر بعنوان : « احاديث ابن دريد » نشر فى « المقتطف » عدد : آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ م ، صفحة ٥٦١ ـ ٥٦٤ ، وذكر فيه أن القالى روى عن ابن دريد « اكثر من ستين حديثا بعضها قصير ، وبعضها طويل ... » وقال : « اذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه ، أو مما وقع اليه من كلام الأعراب ، كان ما بقى من احاديثه المتشابهة فى القدر والوضع والاسلوب قريبا من الأربعين » . ثم ذكر وضع ابن دريد واختراعه تلك الأحاديث معتمدا على ما ذكره الحصرى فى « زهر الآداب » ثم ذكر قصة أبى نواس التى وصفها ابن دريد ، واعقب ذلك بذكر اهتمام « ابن دريد بتصوير الشمائل العربية ، وكلفه بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء فى فهم الرجال ، واعجاب البنات بأعمال الآباء ، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول ... » واورد حديث ابن دريد « على لسان أرس بن حارثة : المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ... » وحديث الرجل الأعمى ـ من أزد السراة ـ مع الشاب الجميل « يا بن أخى : ان اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام ... » وذكر ان ابن دريد كان « يتعقب اعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ، ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع ، وشرف الاحساب » .

وتعقيبا على ما كتبه زكى مبارك نشرت « المقتطف » فى « باب المراسلة والمناظرة » ردا للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ـ الطرابلسى أصلا والمصرى اقامة ـ وذلك فى عدد آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ ، الصفحة) ٥٨٨ ـ ٥٩٠ ، تحت عنوان : ـ خطأ فى اصلاح خطأ حول نشأة فن المقامات » ذكر فيه مقال الدكتور مبارك ودهشة مارسيه وطه حسين لاكتشافه ، وعلق على ذلك قائلا : « فالكاتب كما ترى ملك من هذا النص عنصر الدهشة ، وكذلك دهشت أنا ، ولكن لا من النص بل

من أن قوما يدرسون للناس تاريخ الأدب ، وهم الى اليوم يجهلون عبارة فى كتاب طبع مرارا مع العقد الفريد ، وطبع نصفه ، وفيه هذا النص ، على حدة ...

« ولم يذكر احد فى اخبار ابن دريد أن له مقامات ، أو احاديث ، وكتبه محصورة معروفة ، وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ، ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول ، والأحاديث الموضوعة على الأعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد واشهر وضاعها ابن الكلبى ، وابن دريد ينتهى اليه فى اكثر ما يرويه ... وكيف يعارض البديع اربعين حديثا بأربعمائة مقامة شرقت وغربت ، ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة فى كتب المشرق ، ولا تراه منقولا الا عن رحل من أهل القيروان لا رحلة له ولا سند ، ولا رواية ، وانما يستطرف من كل كتاب ، ومن كل خبر ؟ ... وان صاحب زهر الآداب يقول – فى احاديث ابن دريد – انه استنبطها من ينابيع صدره – يعنى الفها – فهى من وضعه ، وليست من روايته ، وانه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالى فى كتابه ، ويلبس بها على الناس ، ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الأصمعى ، أو ابن الكلبى ، ولو فعل لكان كذابا ، وبطلت الثقة به وبكتابه . هذا مضحك ... لا شك عندى ان البديع قلد غيره فى صنعة المقامات ، وهذه كانت طريقته ... وقد وقفت على خبر مصنوع كتب قبل البديع بنحو مائة سنة ، ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك احد انه من كتابة البديع فى مقاماته ، اذ النسق هو هو ، والطريقة واحدة .. » .

رد زكى مبارك على الرافعى بعنوان « حول نشأة فن المقامات – رد على رد » ونشر فى « المقتطف » عدد حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٠ م ص ٨١ – ٨٢ . كما نشر فى العدد نفسه ص ٨٢ – ٨٥ ، تعليق على الموضوع لعبد القادر عاشور استعرض فيه نشأة المقامات وقال : « ان مدرسة ابن دريد هى الجسر الذى عبرته المقامات لتصل الى شاطىء الابداع فى التدوين والتصنيف ، وان عصره هو الحد الفاصل بين المقامة فى المجلس ، والمقامة فى الكتاب ، وان ابن فارس

هـو أول من دون فيها هـذا التدوين المعروف فاطلق عليه لفظها ، وبعـد أن حـذا حـذو ابن دريد فى احاديثه ، ثم جاء بعـده تلميذه بديع الزمان فسار على نمطه ... هـذه هى التى جعلت الحريري يقول ما يقول ويشهد لصاحبها بالفضل والابداع .

ونشرت فى العـدد نفسه ص : ٨٥ - ٨٦ رسالة بعنوان « بيان حقيقة » تتضمن الاشارة الى اغلاط الحصرى في زهر الآداب » كتبت « على اثر قراءة لقول الأستاذ الرافعى فى المقالة التى رد بهـا على الدكتور زكي مبارك » .

ورد الرافعى فى « المقتطف » عـدد : تموز (يوليو) ١٩٣٠ م ص : ٢١١ تحت عنوان : « حـول نشأة فن المقامات » فقال : « ان ما خلط به الدكتور مبارك فى الكلام عن احاديث ابن دريد نقلا عن أستاذه الدكتور طـه حسين كلام مضحك ... لا ريب ان فى رأس الدكتـور وهما يمـد لـه فى مزاعمه الخيالية .. » .

وللدكتور يوسـف نور عوض - أستاذ كرسى الدراسـات الأدبيـة بجامعتى سوكوتو وعنابة سابقا وسالفورد - كتـاب « فن المقامات بين المشرق والمغرب » تناول فيـه المؤثرات الأدبية والفنية فى صناعة المقامة (ص ٦٥) فذكـر اثـار : ابن دريـد ، وابن فـارس (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) ، ومقامات الزهـاد لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) التى وردت فى المجلد الثانى من كتاب عيون الأخبار (ص ٣٣٣ - ٣٤٣) بعنوان : مقامات الزهاد عند الخلفاء والملـوك وهى عشر مقامات ، ثم ذكر اثر النماذج الانسانية الفنية فى مقامات الهمذانى (ص : ٨٢) وهى كتاب البخلاء ورسالة التربيـع والتـدوير للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) وحكاية أبى القاسـم البغـدادى ، لأبى المطهـر الأزدى (ت فى القرن الرابع الهجرى) وقـد نشرها آدم متز سـنة ١٩٠٢ م ، وأشار اليها زكى مبارك فى النثر الفنى ٣٨٨/١ . وذكر الدكتور عـوض أخيرا رسائل اخـوان الصـفا ، وهـذا كله يحتاج الى مناقشـــة .

هكذا نجـد أن كتابات ابن دريد لم تشكل بداية مدرسة المقامات، وقـد فند هـذا الزعم الكاتب عباس مصطفى الصالحى فى كتابه « فن المقامة بين الأصالة العربية والتطـور القصصى » وخلص الى « أن الهمذانى هـو الأديب الذى صـاغ المقامات بشكلها النهـائى المعروف حاليا » واستنتج عـدم وجود تشابه بين مقامات الهمذانى وأحاديث ابن دريد وناقض رأى الدكتور شوقى ضيف بالتشابه . وذكر أن الفرس والعبرانيين عرفـوا فن المقامة بفضل اليهودى يهوذا سلومو الذى ترجم مقامات الحريرى للعبرية .

الفصل الرابع

الأزدى وحكايات أبى القاسم البغـدادى وشـخصية الخـوارزمى

اصـدر آدم ميتز هـذه الحكايات عـام ١٩٠٢ ونشرها هى نفسها الأستاذ عبـود الشالجى عام ١٩٨٠ فى بيروت بعنوان « الرسـالة البغـدادية » ٠

والحكايات هى رواية أبى المطهـر الأزدى عن أبى القاسـم البغـدادى ، وهما فى الحقيقة شخصيتان اسطوريتان ، ومن الطريف أن المقامات أبطالها كما يقل شخصيات اسطورية ٠

وقـد اثبت أبو حيان التوحيدى حكاية أبى القاسم البغـدادى فى مؤلفاته ، كحـديثه عن المغنيات البغـداديات الموجود فى كتـاب « الامتاع والمؤانسة » ، وقيـامه عـام ٣٦٠ هـ (ذكر تصحيف فى الحكايـات عام ٣٠٦) باحصاء المغنين والمغنيات فى جانبى بغـداد ، مع جماعة من اهـل الكرخ ، وهـو مذكور ايضا فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ٠٠

وقـد ذكر ياقـوت فى معجم الأدباء حكاية أبى القاسم البغـدادى أو الرسالة البغـدادية من ضمن مؤلفـات أبى حيـان التوحيـدى ٠ فهى اذن لـه ٠

ويذكر بروكلمان فى « تاريخ الأدب العـربى (١٤٨ ج ٣) ان أبا المطهر اسمه ابن المطهر ، وحرف الى « أبى المطهر » ، وانه هـو محمد بن احمد المطهر الأزدى(١) وانه ألف فى المـائة الخامسة للهجرة حكاية أبى القاسم البغـدادى التميمى(٢) مصورا بذلك نمـوذجا بغـداديا أصيلا من العادات والتقاليد ، فعـرض هيئة بغـدادى طفيلى ظريف فصيح ذرب اللسان يقص مغامراته ٠ وأحاديثه فى يوم كامل ببغـداد ٠

---

(١) تـوفى عـام ٤٨٥ هـ ٠

(٢) وهى التى نشرها آدم متيز عام ١٩٠٢ فى هايدلبرج عن نسخة فى المتحـف البريطـانى ٠

أبو بكـر الخـوارزمى

٣٢٣ — ٣٨٣ هـ

هـو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر العالم اللغـوى الأديب النحـوى الاخبارى ، الرحالة ، اديب خوارزم ، وبليـغ المشرق ، وصاحب الرسائل المشهورة .

كان اصـل آبائه من طبرستان ، وولـــد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان متبحرا فى كل فـن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخـل الأمصار فى طلب العلم والادب ، وتقلب فى خـدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، ولقى سـيف الدولة وخـدمه بالشـام ، ثم شرق الى بخـارى ونيسـابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصـاحب الـوزير باصـبهان ، فكان من جملة المختصين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصـدر عنه بالأموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، واقام بها للاملاء والتدريس ، فنكب نكبة سـجن فيهـا ، وفـر الى الصـاحب ، ثم عـاد الى نيسـابور . قال الثعالبى : « وطاب عيشه بها الى ان رمى فى آخر أيامه بداهية من البديع الهمذانى ، وبلى بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، واعـان البديع عليه قـوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وانف من تلك الموقف ، وانخـذل انخـذالا شـديدا ، وكسف بالـه ، ولم يحـل عليـه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ » .

ومنزلته فى الكتـابة لا تنكر ، ويمتـاز عن الصـاحب بجزلة اللفظ وفخـامته ، وكثير من النـاس يفضله عليه ، ويمتاز البديع عنه برقـة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، ولـه فى ذلك رسائل بديعـة ، ولـه ديوان رسائل طبع فى الآسـتانة وغيرها ، وفيـه الكثير من رسـائله البليغـة المطـولة .

بديـع الزمـان الهمـذانى

٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

- ١ -

هـو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمـذانى الكاتب المترسـل ، والشاعر المبـدع ، حافظ عصره ، وذكى دهـود ، وقـدوة الحريرى فى انشاء المقـامات ، وقريع الخـوارزمى فى المبتدعات والمكاتبات . نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره ، وورد على الصـاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالأدب فاقام بنيسابور مدة أملى بها اربعمائة مقامة فى الجـد والهزل نحلها ابا الفتح الاسكندرى محـدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيـق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حـذوها ، واعترف بفضل السبق لـه ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سـببا لهبوب ريحـه وبعـد صـيته ، اد لم يكن فى الحسبان أن احـدا يجترىء على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهـذا قـوم وتعصب لهـذا آخرون ، واتفق أن مات فى اثنـاء ذلك خصمه ، فخلا لـه الجـو عند المـلوك والرؤسـاء ، وتجـول فى حواضرهم . فلم يبـق بلـد فى خراسان الا دخله الى أن الـقى عصاه فى هراة ، وصاهر أحـد أعيانها من العلمـاء ، فطاب عيشه ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهـو فى سن الأربعين ٣٩٨ هـ . قيـل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفلق فى قبره وسمع صوته بالليل . وانه نبش قبره فوجـدوه وقـد قبض على لحيته ومات من هـول القبر .

وكان البديع أسرع أهـل زمانه بديهـة ، واكثر شـعره وكتابته مرتجـل ، وكانت عبارته سهلة لينـة قصيرة السجع . تشهد عـذوبة لفظها ، وتدفق جملها ، بأن صاحبها قالها طبعـا من غير ان يكدح خاطرا ، او يتعمد صناعة ، ولا غرو فقـد قيل : انه كان يلقى عليـه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعرا الى العربية . وكان لجريان

طبعه وترقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد ان يكتب الكتاب الذى يقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطوره ، ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كاحسن شىء واصلحه .

- ٢ -

ومقامات الهمذانى هى حكايات او قصص قصيرة ، انشاها بديع الزمان من الحوادث التى وقعت لـه او شاهدها فى اثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خراسان وما جاورها . وقـد كتبها فى نيسابور بعـد أن عاشر كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصـة هنـاك . ويظهر أن التسول كان ذائعاً وكانت حيل المتسول معروفة لديه ، وقـد عرف بعضهم واتصل به . وكان كثير من الأدباء اذ ذاك على هـذه الحـال . فيكتب مقـاماته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها الى رجـل سماه أبا الفتح الاسكندرى ، ونسب روايتها الى رجـل آخر سماه عيسى بن هشام . وقـد يكون فى حياة أبى الفتح الاسكندرى شىء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشىء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يسأل بأدبه ، ولأن حياته كانت فى جملتها على هـذا النحـو من الرحلة والسؤال . وموضوع مقاماته أن رجـلا شحاذا اديبـا وهـو أبو الفتح الاسكندرى كان يجـول فى البلاد ويتفنن فى أساليب الاحتيـال للحصول على المـال . وكل مقـاماته التى تنيـف على الخمسين لا تخرج عن هـذا الغرض ، ولكنها تمتاز بدقـة أسلوبها ، وسلاسة الفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفـاظ اللغوية ، وعـدم التكلف الظاهر . حتى لقـد يبـدو أحيانا أن أسلوبها أقرب الى الكلام الفطرى منه الى التعمل والصنعة . وهى مسجوعة ، ولكن سجعها رفيـق سـهل ، احتـوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

الفصل الخامس

مقــامات البــديع

فى المقامة الأولى « القريضية » يذكر البديع أن عيسى بن هشام حدثه فقال : طرحتنى النوى مطارحها ، حتى وطئت جرجان الأقصى » ، وفيها لقى أبا الفتــح الاسكندرى دون أن يعــرف كل منهما صاحبــه ، واخــذ ابو الفتح يحــدثه عن الشعراء ، ثم انصرف ، فقــال عيسى ابن هشام فى نفسه : الاسكندرى والله .

والمقــامة الثانية هى الأزادية ، وفيها يستجدى ابو الفتح النــاس ومعــه عيــاله واطفــاله .

والثالثة هى البلخية ، وفيها ينسب أبو الفتح نفسه الى قريش .

والرابعــة هى السجستانية .

والخامســة الكوفيــة .

والسادسة الأســدية ، وفيها يقول عيسى بن هشام عن أبى الفتح : وانا أســأل الله بقاءه ، حتى ارزق لقاءه ، واتعجب من قعود همته مــع حسن اكتسابه .

والســابعة هى الغيــلانية .

والثامنة الأذربيجانية ، وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه : انا جوالة البــلاد وجــوابه الآفــاق .

والتاسعة هى الجرجانية ، وفيها يقــول ابو الفتح عن نفسه : انى امرؤ من اهــل الاسكندرية ، من الثغــور الأموية .

والعاشرة : الأصفهانية ·

والحادية عشرة : الاهوازية ·

والثانية عشرة : البغدادية ·

والثالثة عشرة : البصرية ·

والرابعة عشرة : الفزارية ·

والخامسة عشرة : الجاحظية ، وفيها ينشد أبو الفتح شعرا له : اسكندرية دارى الخ ·

والسادسة عشرة · الكوفية ·

والسابعة عشرة : البخارية · وفيها يقول عيسى بن هشام : غزوت الثغر سنة خمس وسبعين ، ويريد منه خمسا وسبعين وثلاثمائة بالضرورة ·

والثامنةعشرة : القزوينية ·

والتاسعة عشرة : الساسانية ، وتدور احداثها فى دمشق ، وفيها يجعل أبا الفتح زعيم الكتيبة الساسانية ·

والحادية والعشرون : الموصلية ·

والثانية والعشرون : المضيرية ، واحداثها فى البصرة ·

والثالثة والعشرون : وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه : انا من بلاد الاسكندرية ·

والرابعة والعشرون : المارستانية ، ويريد مارستان البصرة وفيها يؤكد أن اسكندرية داره ·

والخامسة والعشرون : وفيهـا يقـول ابو الفتـح عن نفسه : انا من ذوى الاسكندرية .

والسادسة والعشرون : الوعظيـة .

والسابعة والعشرون : الأسـدية .

والثامنة والعشرون : العراقية ، وفيها يقول أبو الفتح : أنا عيسى الأصـل ، اسـكندرى الـدار .

والتاسعة والعشرون : الحمدانية . وفيها يقول عيسى بن هشام : حضرت مجلس سيف الدولة يوما ، ويقـول ابو الفتح عن نفسه : من الثغور الأموية ، والبلاد الاسكندرية .

والثلاثون : الرصـافية ، ويذكر فيهـا حيل الساسانيين ، وفيهـا يقـول عيسى بن هشام : فقـام كهل منهم .

والحادية والثلاثون : المغـزلية .

والثانية والثلاثون : الشيرازية ، وفيها يقـول عيسى بن هشام : دخـل كهل قـد غبر فى وجهه الفقر .

والثالثة والثلاثون : الحلـوانية .

والرابعة والثلاثون : النهيـدية .

والخامسة والثلاثون : الأبليسـية .

والسادسة والثلاثون : الأرمينيـة .

والسابعة والثلاثون : ويقول فيها فضل الأمير على ابن العميد كفضل قريش على باهـلة .

والثامنة والثلاثون : الخلفيـة ، ولعـل النسبة الى خلف بن أحمد أمير نيسـابور .

والتاسعة والثلاثون : النيسابورية .

والأربعون : العلمية ، وفيها يذكر ابو الفتح ما سبق ان ذكره : اسكندرية دارى .

والحادية والأربعون : الوصية ، وفيها يقول : لما جهز ابو الفتح ولده للتجارة .

والثانية والأربعون : الصيمرية ، وفيها يقول عيسى بن هشام : قال محمد بن أسوان المعروف بابى العنبس الصيمرى (٢٧٥ هـ) .

والثالثة والأربعون : الدينارية .

والرابعة والأربعون : الشعرية .

والخامسة والأربعون : الملوكية ، وفيها ذكر سيف الدولة وذكر الأمير (خلف) .

والسادسة والأربعون : الصفرية .

والسابعة والأربعون : المارية .

والثامنة والأربعون : التميمية او الحرامية .

والتاسعة والأربعون : الخمرية .

والخمسون : المطلبية .

والحادية والخمسون : البشرية .

الفصل السادس

تطـــور فـــن المقـــامة الحــــــــــريرى

٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ

- ١ -

هو(١) ابو محمد القاسم على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى اللغـوى النحوى الكاتب الشـاعر صاحب المقـامات المشهورة والبدائع المـاثورة ، وهـو عربى صميم من بنى حـرام · ولـــد ٤٤٦ هـ بمشان البصرة(٢) ، ونشـأ بالبصرة وانقطع لتعـلم العربية من اللغـة والنحـو والأدب ، حتى صـــار نادرة زمانه ولا سـيما الانشـــاء ، فجـــارى البديع فى اختراع مقامات متخيلة القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغـة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها · واتفق أن اعرابيـــا فصيحا يسمى ابا زيد قـــدم البصرة من سروج(٣) ، فأعجب اهــل البصرة به ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويهـا الحـارث ابن همام يريد نفسه أخـذا من الحـديث « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث : الكسب · والهمام : كثير الاهتمام · وأول مقامة صنفها هى المقمة الحرامية الثامنة والأربعـــون ، وعـدة المقامات خمسون مقامة ، صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد هكذا وجد بخطه ، وقيل : انه عملهـــا للوزير انوشروان وزير المسترشد ايضـــا ، وقـد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنهـا لمغربى قـدم البصرة ومات بهـــا ·

ومن يطلع على مقاماته ويعـــرف مغازيها ومراميها وبلاغـــة

---

(١) ١٢٨ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى ·

(٢) هى قرية قريبـــة من البصرة ، كثيرة النخـــل ، وكان لـه فيهـا ١٨ الف نخـلة ·

(٣) بلـد بالجـزيرة ·

عباراتها ، يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير. وقد شرحت المقامات عدة شروح وتزجمت الى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها : وحده مغزاها وان اكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء ، وللحريرى العذر فى ذلك لأنه فرض روايتها عن الأعراب ، وهم كانوا لا يقدمون المدن الا منتجعين مستجدين ، وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيرا دميما ، يولع بنتف لحيته ، وله ديوان رسائل وشعر جميل وتاليف شريفة ، منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الاعراب فى النحو ، والمقامات مطبوعة مشهورة .

- ٢ -

وقد نسج الحريرى(٤) علي منوال الهمذاني في مقاماته ، فقلده فى أسلوبها ، ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها ، فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزا اليه مقاماته ، مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا اديبا محتالا ، وكانما اخذ أوصافه من أوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته اشبه بموضوعات مقامات البديع ، لأن الحريرى وصف ابا زيد السروجى بانه فقير محتال ، يستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى كسب عطف الناس عليه واستدرار اموالهم ، كما وصفه بانه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملح فى السؤال ، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان الى مكان ، ويرحل من بلد الى بلد للسؤال ، وقد اتخذ ذلك حرفة له . وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل ، أو صور لبعض الناس . ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لما هو كامن فى نفوسهم من أطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك . وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى الفتح الاسكندرى. أما أسلوب مقاماته فاظهر شىء فيه تعمد السجع والصناعة اللفظية . ولكن للتكلف لا يظهر فى كثير منها ، بل لقد يكون السجع حلية

---

(٤) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة ، فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية واخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار اماما فى ذلك . والف كتبا فى اللغة منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وكان شاعرا وأديبا وكاتبا ومؤلفا ، ومن اشهر ما كتب مقاماته المعروفة ، ويحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب واكبر كتابهم .

لكلامه ، وسببا لحسن ديباجته ، ولولا ذلك لكان كلامه غير مقبول لقلة معانيه أو تكرارها ٠ ومن مميزات أسلوب هذه المقامات انها جعبة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سائرة ، وأشعار رقيقة ، وقد ولع الحريرى بالصناعة اللفظية ككل كتاب زمانه ٠ وأكثر من أنواع البديع ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دل على نبوغ فائق فى هذا النوع من الكتابة الفنية ٠

ومن مقامة للحريرى يوصى ابنه بالكدية والشحاذة وهى تصوير لفكر الساسانية وأدبهـا :

يابنى ، انى جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت أن المعايش امارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وانفع ، فما أخذت منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة ، أما فرص الولايات ، وخلس الامارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفىء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، اما بضائع التجارات ، فمرضة للمخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطيارات ٠ واما اتخاذ الضياع ، والتصدى للازدراع ، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا بها عن اذلال ، أو رزق روح بال ، واما حرف أولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشيبة الحياة ، ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، الا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلما ، واخترت سيماها لى ميسما ٠ اذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو اليه الجمهور ، أو يستصبح به العمى والعور ، وكان أصلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمو لا مع ، ولا يدينون لدان وشاسع ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد ٠ أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم غر محجلة ٠ أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا ، ولا يمتيزون عما تغدو خماصا وتروح بطانا

ومن مقامات الحريرى المقامة الاسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة ابى زيد مع امرأته امام القاضى مما يمثل حبل الساسانيين وادبهم فمنهـا :

« ... فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، فى عشية عرية ، وقد احضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوى الفاقات ، اذ دخل شيخ عفرية، تعتله امرأة مصبية . فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، انى امرأة من اكرم جرثومة ، واطهر ارومة ، واشرف خؤولة وعمومة ، ميسمى الصون ، وشيمتى الهون ، وخلتى نعم العون ، وبينى وبين جاراتى بون ، وكان أبى اذا خطبنى بناة المجد ، وأرباب الجد ، سكتهم وبكتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم ، واحتج بأنه أعاهد الله تعالى بحلفة ، الا يصاهر غير ذى حرفة ، فقيض القدر لنصبى ووصبى ، أن حضر هذا الخدعة نادى ابى . فاقسم رهطه ، أنه وفق شرطة ، وادعى أنه طالما نظم درز الى درة ، فباعها ببدرة . فاغتر أبى بزخرف محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله . فلما استخرجنى من كناسى ، ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى الى كسره ، وحصلنى تجت أسره ، وجدته قعدة جثمة ، والفيته ضجعة نومة . وكنت صحبته برياش وزى ، وأثاث ورئى . فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم ، الى أن مزق مالى بأسره .

مقـــامات اليـــازجى

عالج الشيخ ناصيف اليازجى فن المقامة كما عالجـــه عـدد من معاصريه كاحمد البريرى ، وابراهيم الأحـدب ، وعبد الله فكرى ، وفارس الشدياق وسواهم ٠ الا ان اليازجى قـد تفوق عليهم ونال قصب السـبق فى هـذا المضمار بمقاماته الستين التى قلـد فيها الحريرى واحتذاه فى مقاماته ، حتى انه اطلق على احدى مقاماته « السروجية » نسبة الى بطل مقامات الحريرى « أبى زيد السروجى » وضمنها شطرا من ابياته هـو : « سروج ياناق فسيرى وخـدى » ··

وقـد اختار اليازجى لمقاماته بطلا اسماه ميمون بن خزام ، وراوية هـو سهيل بن عبـاد وجعـل معـه فى عـدد كبير من مقاماته ابيته ليـلى وغـلامه رجبـا ··

وكلا البطل والراوية لا يختلفان فى شىء عن بطل الحريرى وراويته ميمون بن خزام كالسروجى فى المكر والدهاء وذلاقة اللسان ·· وكذلك يتفق سهيل بن عبـاد مع الحارث بن همام فى حب العلم والأدب والتنقـل من بلـد الى بلـد ، والتقائه بالبطل وتعرفه عليه ، بعـد أن يحاول التخفى والتنكر ٠ كما ان اليازجى يقلـد الحريرى فى اطلاق اسماء البلاد على مقاماته ·· بل يشاركه فى أسماء كثير من البـلاد التى اطلقهـا على مقاماته ، كالمقامة البدوية التى تسمى عند الحريرى « البكرية » أو « البـدوية » والمقـامة الحجـازية والعمـانية والاسكندرية والمكيـة وغيرها ٠

ويقلده فى انه يبدأ مقاماته بمقامة يتعرف فيها سهيل بن عباد على ميمون بن خزام وينهيها بتوبة البطل وان كان اليازجى لا يكتفى بأن يحج بل يجعله يزور بيت المقـدس ، وكانه يصنع ذلك ليرضى بذلك المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، ويقلده فى ان البطل كثيرا ما يبدأ فى المقـامة واعظـا ، وينتهى فيها الى الفسق ومعاقرة الشراب ··

وهـو مثل الحريرى قـد يختلق المشاجرات بين البطل وزوجتـه التى

هى ابنته ليلى ق كما يحتال على القضاة مثله فى اكثر من مقامة ويشاركه فى حشو مقاماته بالألغاز والصور البديعية كما يمزج مثله فى مقاماته بين الشعر والنثر ، وان كان شعره متكلفاً غثاً لا يرقى الى مستوى شعر الحريرى الرائع فى كثير من قصائده ، وتسود مقامات اليازجى ـ كما تسود مقامات الحريرى ـ روح التشاؤم، وسوء الظن بالناس ..

ويقال أن اول مقامة انشاها هى المقامة العقيقية التى عرضها على اعضاء الجمعية السورية ، فأعجبوا بها ، فانشأ ستين مقامة اطلق عليها (مجمع البحرين) أى بحر النثر والشعر . وقد قرظها عدد من شعراء وادباء عصره ، كشهاب الدين العلوى الموصلى ، وسركيس ، وابراهيم كرامة ، وغيرهم .

واليازجى فى مقاماته يحذو حذو الحريرى ، والواقع انه قد تتبع خطاه وسار على نهجه فى الموضوع والأسلوب . فمن الموضوعات التى طرقها : الوعظ كما فى المقامة الأولى (العقيقية) ، وان لم تكن الأولى فى ترتيب المقامات المطبوعة .. وفيها يعظ ميمون بن خزام الناس قائلا : يكرام الناس والعشائر وأولى الأبصار والبصائر .. ارايتم ما احرج هذا البيت واسمج هذا الميت طاوا جد وكد واشتد واعتد وركب الأهوال واحتشد الأموال ، فانظروا أين ما جمع وهل أتى بشىء منه الى هذا المضطجع ... الخ .

ويصور فى بعضها حيل الكدين كادعاء ميمون انه خطب لابنه ، واحتياله فى تحصيل المهر كما فى المقامة « الحجازية » .. لكنه فى اغلب مقاماته يطرق موضوعا محببا الى نفسه ، هو موضوع اللغة ، وما يتصل بها من صور البديع ، وهو يحاول ان يتفوق على الحريرى ويبزه مغاليا فى ذلك .. فهو ينظم اراجيز يسجل فيها أسماء المطاعم والنيران والساعات والرياح وبرد العجوز كما فى المقامة « الخزرجية » ، أو يعرض منظومات فى الجناس ، كما فى المقامة « الرملية » ، او يضمنها مسائل فى دقائق النحو والصرف واراجيز فى علم النحو والعروض .

الباب الثاني

شخصية ابى الفتح الاسكندرى
بطل مقامات البديع

الفصل الأول

ابو الفتح ليس شخصية أسطورية

ـ ١ ـ

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ ـ ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى ٠

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة اسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى ابى الفتح البطل ٠

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا ٠ وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، صاحب الفضل فى انشائها(١) ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى «اليتيمة» البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ٠ ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم ماورن عبود مثلا ، اذ يقول(٢) : أن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب الف عام ، رعبثا نحاول العثور غلى أثر لهذه الخطة عند غير البديع ٠

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٣) : فتح البديع بابا فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ٠

---

(١) ٩٥ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى ٠

(٢) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود ٠

(٣) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ـ مازن مبارك ٠

هــذا هو الرأى السائد ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهــر الآداب » يذهب فى كتـابه(٤) الى أن البــديع اقتبس فن المقـامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٥) أن البديع ليس هــو المبتكر لفن المقـامة ، وان كان لــه فضــل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصــة القصيرة » وهــو مصطفى الشكعة(٦) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صــلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ·

ويجعل آخرون البديع محتــذيا حــذو أســتاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ·

ويذكرون آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٧) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاســن والأضــداد عن أهــل الكدية ، ومــع جواز فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبــقى جــديدا كل الجــدة عند البديع · وهناك على أيى حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى ·

ويجعل بعض المستشرقين أســاطير التــوراة عند اليهود وقصــة لقمان همأ الملهمتين للبديع بفكره المقــامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهــذا كلــه كلام يعوزه الدليــل ، ولا تنهض به الحجة(٨) ·

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصــل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قــد وجــدت فى الأدب الفارسى قبــل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى

---

(٤) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » ·

(٥) « النثر الفنى » لزكى مبارك ·

(٦) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشكعة ·

(٧) ٢٠ « المقــامة » لشوقى ضيف - طبع دار المعــارف ·

(٨) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلــف ·

الا بعـد البديع بنحـو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعـد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمـد تقى بهار(٩) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان لـه صـداه فى الأدب الفارسى ، وأن حميد الدين قلـد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكـر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هـذه القصـة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم والصياغة الطريفة ، والصيغة الجـديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قـد انشأها بديع الزمان الهمـذانى لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجـددة فى عصره ٠

ولقـد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هـو ابو الفتـح الاسكندرى ، وهـو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصـولها ، وقـام بكـل احـداثها ٠

وشخصية أبى الفتح ــ كما تبدو من خلال المقامات ــ شـخصية رائعـة حقا ، فهو بطـل للوقف كله فى المقامة ، وهـو ــ كما يصـوره الهمـذانى ــ عالم واديب وشاعر ، وهـو ناقـد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحيـاة فـلا يجـد أمامه الا الكدية والاحتيال بكل اسلوب من اجـل المـال أو الطعام ٠ وهـو الى ذلك كلـه مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ويهـز النـاس بفصاحته وبلاغته ٠

وكنية أبى الفتح لعـل البديع رمز بهـا الى فتوحات هـذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقـد يكون معززا لذلك المعنى على انه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتـوحات ابى الفتـح فى أموال

---

(٩) « تاريخ تطور النثر الفارسى » محمد تقى بهار ٠

الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر . وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر في مقاماته قوله « اسكندرية داري »(١٠) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدوني (٢٥٦ - ٣٢٣ ق م) .. ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه في فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التي تنتسب اليه مدينته .

ويقومنا ذلك الى التساؤل : أي اسكندرية كان يعني البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساساني ؟

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : اني امرؤ من اهل الاسكندرية من الثغور الأموية . وفي المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية . ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية في مواضع كثيرة أخرى

فاذا رجعنا الى ياقوت(١١) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التي صار اسمها سمرقند ، والتي صارت مرو ، والتي سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهي التي رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع ، الا أني وجدت رحالة عربيا في القرن الرابع - هو ابن دلف - يذكر مدينة المحصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموي مقيم بها(١٢) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال

---

(١٠) راجع مثلا في المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

اسكندرية داري لو قر فيها قراري

(١١) ٢٣٥/١ معجم البلدان .

(١٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان.

جـديد آخر ، ويذكـر باحـث عراقى أن الاسـكندرية بين بغـداد والحلة(١٣) . ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٤) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسـكندية على نهر أموى .

ومـع ذلك كلـه فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

فمن هـو ابو الفتـح الاسكندرى اذا ؟

١ - هنـاك رأى سـائد انه شخصية أسطورية خيالية محضـة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقـدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهـذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر السيأسى الثانى »(١٥) . وؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضـع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتـح ، وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شـيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همـذان ، وينقـل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم ناشىء من قـول البديع فى مطلع كل مقـامة من مقـاماته : حـدثنا عيسى بن هشام . ولـو ذهبنا الى أن أبا الفتح هـو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك اكثر صـلة بالبحث ، وأكبر انطباقا على الموضوع .

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتآن مؤلف كتاب « بديع

---

(١٣) يعـد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمة طارق العوسج وهـو مدرس بمكة المـكرمة منذ سنوات .

(١٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشـكعة نقـلا عن محاضرات عـزام فى كليـة الاداب عام ١٩٤٤ م .

(١٥) ص ١٤٧ الكتـاب المذكـور .

الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب انهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٦) .

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ، ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا انهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية .

وانا معهم فى ذلك . ولكنى اخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية ابى الفتح بطل المقامات البديعية .

ويذهب باحث عراقى(١٧) سبق الاشارة اليه الى ان ابا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٨) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه ، ولكنى اخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر(١٩) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » .. ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هو أبو دلف والأحنف . وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية

---

(١٦) بديع الزمان ص ٢٣٢ .

(١٧) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى .

(١٨) ص ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور .

(١٩) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ .

حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له · وهذا رأى الدكتور محمد غنيمى هلال وأضاف اليه أن أبا دلف قد يكون أقرب الى شخصية أبى الفتح(٢٠) ·

٣ - ورأيى الذى أذهب اليه اليوم هو أن أبا الفتح انما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجى وحده ·

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع · ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) قال :

انشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتح الاسكندرى :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور(٢٢)

لا تلتزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١ - انشد البديع الثعالبى شعرا لأبى دلف ·

٢ - وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه باقرار البديع ·

٣ - كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ·

---

(٢٠) النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة للدكتور غنيمى ·

(٢١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمة ·

(٢٢) هذا الشعر فى المقامة القريضية احدى مقامات البديع ·

واذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف استاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان ابو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص ابى الفتح الاسكندرى ، ولأن شهره وتجارب ابى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان ٠

بل انى أضيف الى ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقامة فى الأدب العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

فمن طوى أبو دلف هذا اذن ؟

يقول صاحب كتاب « النماذج الانسانية »(٢٣) :

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استمد منها الهمذانى نموذجة الأدبى ، وهو الشاعر أبو دلف وكان معاصرا لبديع الزمان ، وكان البديع يعجب به ويستدعيه الى مجلسه ويحسن اليه ٠٠ وهذا الرأى أخذه على ولم ينسبه صاحب الكتاب لى ، مجافاة للأمانة العلمية ٠

---

(٢٣) القيت بحثا عن شخصية أبى الفتح وانه هو ابو دلف عام ١٩٧٠ فى محاضرة عامة عام ١٩٧١ ، ونشر فى الرياض فى كتاب بعنوان « ابو دلف » عام ١٩٧١ ، وبعد ذلك صدر كتاب « النماذج الانسانية » بسنوات مما يدل على سبقى بالرأى ٠

ومع ما فى هـذه الجملة من ذهاب الى ما قلناه من أن ابا دلف هـو ابو الفتـح الاسكندرى بطـل مقامات البديع فان فيها على قصرها اخطـاء كثيرة :

١ - قـوله « وكان ابو دلف معـاصرا لبديع الزمان » ، الأولى أن يقـال : وكان البديع معاصرا لأبى دلف لأن ابا دلف كان قـد بلغ الستين فى حين كان البديع ابن عامين .

٢ - قـوله : وكان - اى بديع الزمان - يستدعيه - اى ابا دلف - الى مجلسه ، البدن الأولى العكس ؟ ايستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن كأبى دلف الى شـاب صغير .

٣ - قوله « وكان - اى البديع - يحسن اليه - اى الى ابى دلف - ايستقيم ذلك مـع مكانة ابى دلف عند عضـد الدولة والصاحب عبـاد وعظماء الدولة بينما كان البديع شابا يسعى للوصول الى مراكز النفـوذ فى الدولـة ؟

الفصل الثانى

الصاحب وأبو دلف

بين الصاحب وأبى دلف(١)

الصاحب ذو القعدة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م ـ ٢٤ من صفر ٣٨٥ هـ : ٣١ مارس ٩٩٥ م ·

ـ ١ ـ

لم يبلغ احد من الأدباء وحملة رسالة القلم ما بلغه الصاحب ابن عباد ، من المجد والنفوذ وذيوع الصيت ، وكان ـ كما يقول ابن خلكان ـ : « نادرة الدهر ، واعجوبة العصر ، فى فضائله ومكارمه وكرمه »(٢) ، وكما يقول فيه الثعالبى : هو صدر الشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان »(٣) ·

وقد كرم الصاحب فى حياته ووفاته تكريما لم يبلغه احد من الأدباء وخلد على صفحات التاريخ ، مجدا سامقا ، وأدبا رفيعا وذكرى مرددة على الأيام ·

ـ ٢ ـ

ولد الصاحب اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد فى ذى القعدة من سنة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م فى طالقان ، وهو اقليم من اقاليم ايران ، بين قزوين وأبهر ، من أسرة فارسية(٤) رفيعة النفوذ والسلطان، فى خلافة الراضى العباسى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) ، فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعاية فائقة ·

ومضت ايام طفولته الأولى ، والخلافة العباسية تعصف بها العواصف ، فمات الراضى وخلفه المتقى (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) ثم المستكفى

---

(١) ٧٥ من كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى (خفاجى) ·

(٢) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان ·

(٣) ٣ : ١٩٢ يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محى الدين عبد الحميد ·

(٤) ٦ : ١٩٩ كتاب معجم الأدباء لياقوت ـ نشر رفاعى ·

(٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، وفى عهده زاد خطر الدولة البويهية فى فارس ، وزحف معز الدولة البويهى على بغداد ، بجيوش كثيفة ، واستولى عليها عام ٣٣٤ هـ : ٩٤٦ م ، وخلع الخليفة ، وولى مكان المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى حكم العراق بالنيابة عنه ، ولم يبق للخليفة ذكر الا أن يردد اسمه فى الخطب ، وتجبى باسمه الأموال للبويهيين ، عماد الدولة اخو معز الدولة حكم فارس والأهواز ، كما تولى اخوهما الثالث ركن الدولة الحكم فى الجبل والرى ، وامتد نفوذه على جرجان وطبرستان ٠٠

اما اقليم خراسان وما وراء النهر فكان فى نفوذ السامانيين الذين اتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال تام ، وان خطبوا للخليفة العباسى على المنابر ٠٠٠ وكان اقليم الجزيرة والشام فى أيدى الحمدانيين ، ومصر فى نايل الأخشيديين ، والشمال الأفريقى تحت سيطرة الفاطميين والأندلس فى حكم الأمويين وملكهم عبد الرحمن الناصر (٣١٠ - ٣٥٠ هـ) ٠

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم وسلطانهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك ، وقضاء على النفوذ التركى فى العالم الاسلامى ٠ وبقيام هذه الدولة خضعت الخلافة العباسية لسلطانهم وهيمنتهم على العالم الاسلامى باسم الخلافة والخلفاء(٥) ٠

ولما مات معز الدولة عام ٣٥٦ هـ(٦) خلفه فى حكم العراق ابنه عز الدولة البويهى (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) باخرته : صمصام الدولة بن ركن الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ، فشرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ ، فبهاء الدولة البويهى (٣٢٩ - ٤٩٣ هـ) ٠

---

(٥) ٢٤٩ و ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى ٠

(٦) فى هذا العام نفسه مات : سيف الدولة الحمدانى ، وكافور الأخشيدى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الاغانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى ٠

وفى عهد عز الدولة خلع الخليفة المطيع لله ، وولى مكانه الطائع العباسى (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) الذى خلعه بهاء الدولة البويهى ايضا ، حيث جره أحد قواده من سرير الخلافة ، والخليفة يقول : - انا لله وانا اليه راجعون » . وفى ذلك يقول : الشريف الرضى :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... الى أدنوه فى النجوى ويدنينى

أمسيت ارحم من اصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات اغتر بالسلطان ثانية ... وقد ضل ولاج أبواب السلاطين(٧)

واختار بهاء الدولة القادر بالله العباسى خليفة مكان المطيع (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) .

وقد نشر النفوذ البويهى سلطان الشيعة والعلويين والاعتزال .. وكان للصاحب ابن عباد مجالس يذظر فيها خصوم المعتزلة ويدعم حججهم(٨) .

وفى العهد البويهى نهض الأدب ، كثرت عواصمه ، ونبغ كبار الأدباء والشعراء ، كابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصاحب (٣٨٥ هـ) ، والخوارزمى (٣٨٣ هـ) ، والبديع الهمذانى (٣٩٨ هـ) ، والصابى (٣٨٤ هـ) ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) صاحب الوساطة ، والآمدى (٣٦١ هـ) صاحب الموازنة ، وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) صاحب الصناعتين ، ومثل المتنبى (٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٤٠٦ هـ) ، ومهيار (٤٢٨ هـ) ، والمعرى الحلبى (٤٤٩ هـ) ، وسواهم من أعلام الأدب والنقد والبيان والشعر .

---

(٧) ديوان الشريف الرضى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٨) ٦ : ٢٠٩ - ٢١٢ و ٢٨٠ معجم الأدباء .

وقد تنافس الملوك والأراء والوزراء والولاة فى تشجيع الأدب ورعاية الشعراء · ولابن العميد والصاحب والمهلبى أثر كبير فى ذلك ، وكان ابن سعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة والمفكرين كأبى حيان وأستاذه أبى سليمان المنطقى ، وكان شابور بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفى بالثقافة والأدب ، وكان ابن العميد يميل الى العلم من حيث كان الصاحب والمهلبى يميلان الى الأدب ، وابن العميد أعقل ويدعى الكرم ، والصاحب أكرم ويدعى العقل كما يذكر أبو حيان(٩) ·

وكانت هذه الثورة السياسية وما صحبها من تيارات مذهبية وعقلية وأدبية هى البيئة العامة التى عاش فيها الصاحب وتأثر بها ، وأثر فيها ·

- ٣ -

وكان عباد والد الصاحب عالما أديبا كتب لركن الدولة البويهى ، الذى شمل نفوذه الجبل والرى وجرجان وطبرستان ، وكانت حاضرة ملكه هى الرى ، وتولى عباد الوزارة له ، وألف كتابا فى أحكام القرآن ، نصر فيه الاعتزال وجود فيه(١٠) ·

وكان هو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، الذى لقب فيما بعد بالصاحب · وقد عاش هذا الأب العظيم عمراً طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، وهى عام ٣٨٥ هـ · ويذكر ابن خلكان وغيره أنه توفى عام ٣٣٤ هـ أو ٣٣٥ هـ(١١) ، والظاهر أن ذلك تحريف ·

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى فى بيت سيادة ومجد ، حتى قال

---

(٩) ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء ·

(١٠) ٦ : ١٧٢ معجم الأدباء نقلا عن كتاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجوزى ·

(١١) ١ : ٧٥ و ٧٦ وفيات الأعيان ، وسلم الوصول ورقة ١٦٦ (مخطوط بدار الكتب المصرية) ·

أبو بكر الخوارزمى فيه : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيه »(١٢) ·

وعاشت أم الصاحب عمرا طويلا كذلك ، حتى توفيت عام ٣٨٤ هـ(١٣)

ـ ٤ ـ

تتلمذ الصاحب على صديق أبيه الحميم ، أبى الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب فى عصره · و « عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة » ، والكثير من الأدباء جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاوروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساوروا فى طريقه ترسما وترسن(١٤) · وطالت صحبة ابن عباد لأستاذه ، فسمى صاحب ابن العميد ، واطلق عليه هذا اللقب · وقد مدح الصاحب أستاذه بقصائد شعرية كثيرة(١٥) ، وكانت مجالس ابن العميد يحضرها العلماء والأدباء والمتكلمون للمناظرة(١٦) ، وكان الصاحب يعده أستاذا ووالدا وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ(١٧) ·

ومن أساتذة الصاحب كذلك ابن فارس ، وكان ابن فارس يبعث للصاحب بكتبه والصاحب يصله ويقدره(١٨) ·

وكذلك تتلمذ على أبى سعيد السيرافى(١٩) ، وشاهد هذا

---

(١٢) ٣ : ١٩٤ يتيمة الدهر ·
(١٣) ٦ : ٢٣٨ معجم الأدباء ·
(١٤) ٣ : ١٥٨ يتيمة الدهر ·
(١٥) ٣ : ١٢٩ المرجع ·
(١٦) ٣ : ١٦١ ـ ١٦٣ المرجع ·
(١٧) ٣ : ١٩٧ المرجع ·
(١٨) ٦ : ٢٢١ معجم الأدباء ·
(١٩) ٣ : ٢٠٤ اليتيمة ·

الأستاذ الكبير من نبوغة ما حببه اليه ، وعلى أبى بكر بن مقسم تلميذ ثعلب(٢٠) ، وعلى القاضى ابى بكر بن كامل من كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء(٢١) • وكان يتردد على مجالس المتكلمين وأهل النظر بالعراق ، من مثل ابى زكريا يحيى بن عدى وغيره(٢٢) •

وشهر الصاحب بالعلوم ، واخذ من كل من منها بالنصيب الموفور ، والحظ الزائد الظاهر ، ووهب من الفصاحة وحسن السياسة والأدب الرفيع ما وهب(٢٣) •

وكان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد اخذ من كل فن بطرف ، وحصل من كل أدب محصولا كثيرا ، وقرأ كتب المعتزلة ووعاها ، فغلب عليه كلامهم ، وكتابته سائرة على منهجهم وطريقهم ، وكان شديد التعصب على أهل الفلسفة وعلومها والناظرين فى كتبها(٢٤) •

وثقافته فى العروض والقوافى واسعة ، وألف فيهما ، وكان يتشيع بمذهب ابى حنيفة وفقه الزيدية(٢٥) • ويكتب الرسائل البليغة ويقول الجيدة ، وحصل الحديث وتفوق فيه(٢٦) ، وكانت لديه مكتبة ضخمة(٢٧) ، وطارت شهرته ، وذاع صيته اديبا وكاتبا مجودا •

ـ ٥ ـ

وقرب ابن العميد تلميذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة

---

(٢٠) ٦ : ٢٧٦ ـ ٢٧٩ معجم الأدباء •
(٢١) ٦ : ٢٧٩ المرجع •
(٢٢) ٢٧٩ : ٢٨٠ المرجع •
(٢٣) راجع ٦ : ١٧١ المرجع •
(٢٤) ٦ : ١٧٤ و ١٧٥ المرجع •
(٢٥) ٦ : ١٧٥ المرجع •
(٢٦) ٦ : ٢٥١ المرجع •
(٢٧) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء •

البويهى ، وكان ينوب عن والده فى أعمال الدولة وسياستها • ويصفه ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه ، فاتخذه كاتبا له(٢٨) ، واجتهد الصاحب فى الاخلاص له ، وانس منه الأمير كفاية ومواهب جمة ، فقربه اليه ، ولقبه بالصاحب كافى الكفاة ، فلما مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ، وتولى ابنه مؤيد الدولة أمور الملك بالرى واصبهان وأنحاء المملكة أبقى أبا الفتح بن أبى الفضل ابن العميد فى وزارته ، كما كان فى عهد أبيه • ولما اقصى هذا الوزير اتخذ مكانه الصاحب وزيرا • ومات مؤيد الدولة ، فسعى الصاحب ، حتى جاء باخيه فخر الدولة البويهى (٣٤١ - ٣٨٧ هـ) مكانه وذلك عام ٣٦٧ هـ ، فاقر الصاحب فى الوزارة ، ولكن ابن عباد رأى بنظره وثاقب رايه وحنكته السياسية ، أن يطلب من فخر الدولة اعفاءه من منصبه ليختار مكانه من يريد لخدمته، فأبى فخر الدولة أن يعفيه من عمله وقال له : لك فى هذه الدولة من ارث الوزارة ما لنا فيها من ارث الامارة فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه(٢٩) • ظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة ثمانية عشر عاما •

- ٦ -

نشر ابن عباد بنفوذه وسلطانه مذهب المعتزلة فدخل الناس فيه ، ومالوا اليه ، رغبة فى مرضاته(٣٠) • وكانت أيامه توطيدا لنفوذ العلويين(٣١) ، وكان متعصبا للشيعة ، ناقما على معاوية يذكر ذلك فى شعره(٣٢) ، وذهب الى القول بالاختيار وتسفيه الجبرية والجبريين(٣٣) •

واخلص لدولة البويهيين كل الاخلاص • حتى لقد حاول السامانيون ان يصير الصاحب اليهم ، فابى وفاؤه ذلك ، وقال : كيف يحسن لى أن

---

(٢٨) راجع ٦ : ٢٢١ - ٢٢٤ المرجع السابق •
(٢٩) ٣ : ١٩٤ اليتيمة ، ٦ : ١٧٤ معجم الادباء •
(٣٠) ٦ : ٢٥٥ معجم الادباء •
(٣١) ٣ : ١٩٢ اليتيمة •
(٣٢) ٣ : ٢٧٧ المرجع نفسه •
(٣٣) راجع شعرا له فى ذلك فى المرجع نفسه (٣ : ٢٧٦) •

افارق قوما بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى(٣٤) . وكان فخر الدولة يثق به ، ويجله واذا رأى رأيا ورأى الصاحب غيره ، امتثل لرأى الصاحب وترك رايه(٣٥) ، وكان فخر الدولة كذلك يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطبه بالصاحب فى حديثه ورسائله ، وقد التزم رجال الدولة وفوادها مع الصاحب الادب والطاعة حتى كانوا يرتعدون عند رؤية احد من حجابه وحاشيته(٣٦) . وكان الصاحب ياتزم بالعدل مع الشعب(٣٧) .

ولما توفيت أم الصاحب عام ٣٨٤ هـ باصبهان وورد عليه الخبر ، جلس للعزاء ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته ، فخر الدولة ، معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزيه ويسكن من لوعته وفعل ذلك سائر الأمراء وكبار القواد(٣٨) .

وبعد ذلك بقليل زوج سبطه عباد بن على بن الحسين الحسنى الهمذانى عام ٣٨٤ هـ بكريمة احد أقرباء فخر الدولة(٣٩) فبعث اليه هذا الملك باموال ضخمة حملها احد اصحابه الكبار ، وقدم القواد ورجالات الدولة عليه مهنئين واقفين بين يديه مبجلين معظمين(٤٠) ، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة .

وفى يوم من الايام استجار خال فخر الدولة بالصاحب ليحميه من غضبة الملك عليه ، فلم يقبل أن يجيره الا بعد أن يستعطف الملك ويترضاه(٤١) . وكان اقارب فخر الدولة من الأمراء وكذلك كبار فواده يحضرون الى قصر الصاحب فيقفون امامه مطرقين الى ان يؤذن لهم

---

(٣٤) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء ، وراجع ٣ : ١٩٧ اليتيمة .
(٣٥) ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء .
(٣٦) ٦ : ٢٤٧ المرجع .
(٣٧) ٦ : ٢٤٨ المرجع .
(٣٨) ٦ : ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع
(٣٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة .
(٤٠) ٦ : ٢٤٠ معجم الأدباء .
(٤١) ٦ : ٢٤١ ـ ٢٤٢ المرجع .

فى الدخــول فيكون ذلك شرفا للواحــد منهم ، فاذا دخــل الى مجلس الصاحب قبـل الارض بين يديه ، ولا ينصرف الا بعـد أن يقبـل الأرض كذلك مرارا ، ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحـد فى ذلك(٤٢) . وكان رؤســاء البويهيين وأمراؤهم عندما يسير الصاحب يعدون بين يديه وكان عضد الدولة فى رسائله اليه يجـله ويعظمـــه(٤٣) .

وقـد كان الصاحب موفقا فى سياسته كل التوفيق ، فتـح خمسين حصنا ، واضافها الى ملك فخر الدولة(٤٤) . وبلغ غاية لم يبلغها أحـد من اقرانه ، وكأن يقول : ما تقى من أوطـــارى وأغراضى الا أن أملك العراق ، واتصـدر ببغـداد وأستكتب الصـابى ، ويكتب غنى ، وأغير عليـــه(٤٥)

وفى شـــباب الصاحب كان انصرافه الى مجالس العـــلم وأندية الأدب ، اما فى أخريات حياته فكانت السياسة تصده عن ذلك ، وتدبير الملك يقتضيه السهر فى حياطته ورعايته ، وقـد نجح فى ذلك أيمـا نجاح ففتح الفتـوح ، وذلل الصروح ووطىء الرقاب ، وأدرك الثأر ، واصطنع الرجال ، كما يقول الصاحب نفسه من رسالة لـه الى سـديته فى الأدب أبى العلاء الأسـدى(٤٧) ، وفى هـذه الرسالة يؤكد أن أعباء ، السياسية قـد أثرت على صحته ، ومتاعب الحكم قـد أوهت من قـوته ، وفيها يذكر بيتين من شـعره لهمـا دلالتهما وهما :

وقائلة لم عـرتك الهمـوم وأمـرك ممتثل فى الأمـم

فقلت : دعينى وهـا قـد عرا فـان الهمـوم بقـدر الهمـم

---

(٤٢) ٦ : ٢٤٥ و ٢٤٦ المرجــع .
(٤٣) ٦ : ٢٨٠ المرجــع .
(٤٤) ٦ : ٢٥١ المرجــع .
(٤٥) ٦ : ٣٠٦ المرجــع .
(٤٦) راجع هـذه الرسالة الخطيرة فى ٦ : ٢٩٥ ـ ٢٩٩ المرجـع .
(٤٧) ٦ : ٢٨٤ و ٢٨٥ المرجــع .

وقد صرح بأنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين ، وأرجح أنه كتبها نحو عام ٣٨٠ هـ .

لم ينجب الصاحب غير بنت واحدة زوجها لعلى بن الحسين الهمذانى الحسنى وكان كاتبا وشاعرا بليغا ، وقد أنجبت ابنته ولدا سماه جده (عبادا) واحتفى بمولده أيما احتفاء وقال فيه :

احمد الله لبشرى أقبلت عند العشى
ان حبانى الله سبطا هو سبط للنبى
مرحبا ثمت أهلا بغلام هاشمى
نبوى علوى حسنى صاحبى(٤٧)

وقد هناه الشعراء بمولده بقصائد كثيرة(٤٨) ، وبعد أن كبر هذا الطفل وبلغ مبلغ الشباب زوجه جده من كريمة أحد أقرباء فخر الدولة(٤٩) ، وهى ابنة أبى الفضل الداعى ، وهنأ الشعراء الصاحب كذلك بهذه المناسبة الجميلة .

وحين بنى الصاحب قصرا له بأصبهان ، أقبل الشعراء عليه يهنئونه بقصائد من جيد الشعر وأعذبه(٥٠) .

وذلك كله يدل على مجده ونفوذه الكبير فى الدولة .

– ٧ –

وقد رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبية فى بلاده رعاية

---

(٤٨) راجع ٦ : ٢٨٦ المرجع ، ٢ : ٢٤٠ – ٢٤٢ اليتيمة .
(٤٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة .
(٥٠) ٣ : ٢٠٧ – ٢١٨ المرجع .

فائقة ، واغدق على العلماء والأدباء والشعراء ، فكان يرسل الأموال الجمة اليهم والى الكثير من المحتاجين من اهل الشرف وللفقهاء والزهاد والكتاب ببغداد والحرمين ، كل سنة ، مع ركب الحج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، ويقول الثعالبى فيه : كانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، جلب اليه من الآفاق ، وأقاصى البلاد ، كل خطاب جزل ، وقول فصل ، واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون غنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب احد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء ٠ وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثل : أبى الحسين السيمى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المامونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى والبديع الهمذانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الاسماعيلى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم ومدحه مكاتبة : الرضى والصابى وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة ٠

مدح الصاحب خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين ، وكان من قضائه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد(٥١) ٠ وقال الصاحب : مدحت بمائة الف قصيدة شعر عربية وفارسية وقد انفقت اموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، وما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر ، كما سرنى الرستمى بقوله :

---

(٥١) ٦ : ٢٥٧ معجم الأدباء ٠

ورث الوزارة كابرا عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد
يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن غباد(٥٢)

ولا شك أن الصاحب اثر بذلك فى النهضة الأدبية فى بلاده تأثيرا كبيرا وخطيرا ٠

- ٨ -

كان الصاحب ـ كما قيل فيه ـ يجمع بين الرأفة والبطش ، والناس يهابونه ويجلونه لاقتداره وطبشه ٠ وكان وقورا محبوبا من العامة والخاصة ، والى جانب ذلك كان جوادا سخيا ، لا تخلو داره فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس يجلسون على مائدته فى الافطار ، وكانت صلاته وخيراته فى هذا الشهر تبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة(٥٣) ، ولا يقل ما يبذله كل عام فى صلات الأشراف واهل العلم ووجوه الخير عن مائة الف دينار(٥٤) ٠٠ وكانت له من اسباب الهيبة ما يعجز الكاتب عن وصفه(٥٥) ٠ وفيه وفى ابن العميد يقول خصمهما اللدود ابو حيان التوحيدى : كانا كبيرى زمانهما ، واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا(٥٦) ٠

ومع ذلك فقد هجاهما التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين » هجاء مرا ، والصق بهما التهم جزافا ، وكال لهما الهفوات بغير حساب٠ وهجا بعض الشعراء الصاحب هجاء مقذعا(٥٧) ، كابى العلاء الأسدى،

---

(٥٢) ٦ : ٢٦٣ المرجع ٠
(٥٣) ٣ : ١٩٧ اليتيمة ٠
(٥٤) ٦ : ٢٤٩ معجم الأدباء ٠
(٥٥) ٦ : ٢٤٨ المرجع ٠
(٥٦) ٦ : ٢٣٢ المرجع ٠
(٥٧) ٣ : ٢٨١ اليتيمة ٠

والنويرى ، والخوارزمى والسلامى(٥٨) ٠

ـ ٩ ـ

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ كتاب المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، ومنه نسخة خطية عثر عليها فى لندن فى المتحف البريطانى ، ونسخة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد تقع فى مجلدين كبيرين ، وكاتبها هو الشيخ محمد السماوى عن نسخة كتبت للسيد على خان المدنى صاحب السلافة ٠

٢ ـ كتاب الكافى فى الرسائل ٠

٣ ـ ديوان رسائل الصاحب ـ عشرة مجلدات ، وقد طبعت مختارات منها ٠

٤ ـ كتاب الزيدية ٠

٥ ـ كتاب الأعياد وفضائل النوروز ٠

٦ ـ كتاب فى تفضيل على بن أبى طالب ٠

٧ ـ كتاب الوزراء ٠

٨ ـ عنوان المعارف فى التاريخ ٠

٩ ـ الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره وهو مطبوع ، وقد نقد الصاحب فيه شعر المتنبى ، وكان يتحامل على المتنبى لأنه لم يقصد اليه فى الرى ولم يمدحه مع أنه مدح ابن العميد ، وكان الصاحب قبل وفاة المتنبى عام ٣٥٤ هـ لا يزال شابا ولم يكن له آنذاك كبير الخطر ، ولا شهرة فى السياسة ، ولعل ذلك هو ما جعل المتنبى لا يقصده ولا يقول فيه شيئا من الشعر ٠

---

(٥٨) يتيمة الدهر للثعالبى ـ ج ٣ ٠

١٠ - كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ·

١١ - كتاب العروض الكافى ·

١٢ - كتاب نقض العروض ·

١٣ - كتاب جوهرة الجمهرة ·

١٤ - كتاب نهج السبيل فى الأصول ·

١٥ - اخبار أبى العيناء ·

١٦ - تاريخ الملك واختلاف الدول ·

١٧ - وهذا كله بالاضافة الى ديوان شعره ، وهو مطبوع ، وقد صدرت طبعة جديدة منه من مكتبة النهضة ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين ·

١٨ - وينسب ياقوت اليه كتابا عنوانه « كتاب الزيدين » ولعله هو كتابه الزيدية فحرف ·

- ١٠ -

ظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة اكثر من ثمانية عشر عاما ومات وهو يخطو الى الستين ، فى الرابع والعشرين من صفر عام ٣٨٥ هـ(٥٩) ٣١ من مارس عام ٩٩٥ م ومات بعده فخر الدولة بعامين ·

وقد اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمان الوزير الأديب الى مرقده الأخير ، وسار امام النعش فخر الدولة وكبار القواد والأمراء ، وقعد بنفسه للعزاء أياما(٦٠) · وبكاه الشعراء بكاء مؤثرا(٦١) ، فقال فيه : أبو القاسم الأصبهانى :

---

(٥٩) ٣ : ٢٨٣ اليتيمة ·

(٦٠) ٦ : ١٦٩ و ٢٧٥ معجم الأدباء ·

(٦١) ٣ : ٢٨٤ - ٢٩٠ اليتيمة ، ٦ : ٢٦٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ معجم الأدباء ·

ما مت وحدك لكن مات من ولدت حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

تبكى عليك العطايا والصلات كما تبكى عليك الرعايا والسلاطين

وقال فيه الشريف الرضى من قصيدة طويلة :

هلا اقالتك الليالى عثرة يا من اذا عثر الزمان اقالا

ان نكس الاسلام بعدك رأسه فلقد رزى بك موئلا ومآلا

كان الغريبة فى الزمان فاصبحوا من بعد غارب نجمه أمثالا

وهكذا طويت هذه الصفحة البيضاء وختم سجل تلك الحياة الحافلة بالمجد والعبقرية ٠

- ١١ -

١ - كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب الى النبوغ فى الأدب : عصره،ونشاته العلمية والأدبية،وأساتذته من امثال : ابن العميد والسيرافى وابن فارس ، وبيته ومناصبه التى تقلدها ، وحلقات العلم والأدب ومناظراتهما التى خاضها ، والكتب التى قرأها ، ورغبته فى أن يحتل منزلة ابن العميد ، وأن تحتل الرى منزلة كبغداد فى قيادة النهضة الأدبية وتوجيهها ٠

كل ذلك كان عاملا فى تفجر مواهبه ، وانطلاق ملكاته ، وانبثاق ينابيع شاعريته ، فكان أديبا كاتبا بليغا ، وشاعرا رصيفا ، وكان أستاذه وقدوته فى الكتابة الفنية هو ابن العميد ولا ريب ٠

٢ - وفى عصر الصاحب ازدهرت الكتابة ، وبلغت قمة التجويد والتجديد ، ونبغ فى هذا العصر اعلام الأدب والنقد والنثر الفنى ، من امثال : ابن العميد والجرجانى والعسكرى والآمدى والصابى والخوارزمى والبديع والمهلبى والضبى وغيرهم ٠

وكان الصاحب يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر اربعة : ابن العميد والصابى وابو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه(٦٢) . وكان يقال ان الصاحب يكتب ما يريد والصابى يكتب ما يراد . وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة ، مع حرص شديد على السجع ، حتى روى أبو حيان فيه : انه لو رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من اجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم امور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها(٦٣) ، ويقول ابو حيان : كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة(٦٤) .

وبلاغاته وفقره ورسائله مشهورة ، معروفة المنزلة فى الفصاحة والبيـــان .

يقول فى التهنئة ببنت :

اهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة باخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون ، فادرع يا سيدى اغتباطا ، واستأنف نشاطا ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة ، وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون . فهنيئا لك ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما اعطيت ، واطال بقاءك ما عرف الفضل والرمد ، وما فى الأمد ، وما عمر لبد .

واهدى الى الصاحب مصحف فقال :

---

(٦٢) ٢ : ٢٤٦ اليتيمة .

(٦٣) ٦ : ٢٠٧ معجم الادباء .

كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ودليله ـ ، طبع دون معارضة على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الكون ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تاويله · يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد ·

وتتلخص طريقة الصاحب الفنية فى الكتابة فيما يلى :

أولا : ايثار السجع والتزامه ، حتى ليقول أبو حيان التوحيدى متهكما به : كان كلفه بالسجع فى الكلام عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد · قلت لابن المسيبى : اين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك حدا لو انه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من اجلها الى عزم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل ياتى بها ، ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع من وصفت من عواقبها · ثم قال ـ نقلا عن ابن العميد ـ : ان الصاحب خرج من الرى متوجها الى أصفهان ، ومنزله « ورامين » · وهى قرية كالمدينة ، فجاوزها الى قرية غامرة ، وماء ملح ، لا لشىء الا ليكتب الينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ·

ثانيا : ايثار الفقر القصيرة فى التعبير ، لشدة وقعها فى النفس ، وقوة تأثيرها فى السمع ·

ثالثا : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ، واعطاء الموضوع ما يستحقه من عناصر ، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو ياخذ هذه المعانى بالتحليل والتفصيل ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه الى العقل من دليل او نظير ، ويويد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته العقلية ، فاصبحت الرسالة عنده ذات وحدة موضوعية ، وبنية فنية متميزة ، وصارت معانيه عنده دقيقة الترتيب والتقسيم ·

رابعا : كثرة الحجاج العقلى فى أسلوبه • أثرا لثقافته الكلامية التى استفادها من اعتزاليته •

خامسا : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبايثار الترادف والالحاح عليه •

ونثر الصاحب على الجملة - لو تأملناه - نثر لطيف ، رشيق بليغ ، عذب سهل ، يتميز بقوة الحجة والاعتماد على المنطق ، مما كان اثرا لاعتزاليته وثقافته وعقله الواسع • كما يتميز بقصر الفقرات وشدة توقيعها والحرص على السجع فيها ، وقد يعنى فيه بالجناس أو المقابلة •

ولا شك ان الصاحب كان من اعلام النهضة الفنية فى الأدب والكتابة وادب الرسائل فى عصره ، وهو القرن الرابع الهجرى ، الحافل بأسباب النهضة والازدهار والتجديد والحضارة •

٣ - وفى عصر الصاحب كان الشعر يجتاز مرحلة عالية من البلاغة والتجديد والابتكار ، وكان المتنبى والرضى ومهيار والمعرى ومئات الشعراء يدوى ذكرهم فى كل افق ، ويسير شعرهم فى كل مكان ، ويملأون الجو الأدبى حياة وقوة وخصبا •

وللصاحب شعر كثير ، جمع فى ديوان منشور ، وروى بعضا منه الثعالبى وغيره من الكتاب •

وقد نظمه الصاحب فى اغراض كثيرة :

(١) نظمه فى الغزل ، كقوله :

قال لى : ان رقيبى ... سيىء الخلق فداره

قلت : وجهك الجنة ... حفت بالمكاره

(ب) وفى الخمريات ، ومنه فى وصف الكاس :

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

(جـ) ونظمه فى الأوصاف والتشبيهات ، كقوله :

شبهته والسيف فى كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقوله :

اهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكانما اهدى له اخلاقه

(د) وفى الاخوانيات كقوله :

يا ابا الفضل لم تاخرت عنا فأسانا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا فاذا انت ذلك المتمنى

فبغصن الشباب لما تثنى وبعهد الصبا وان فات منا

كن جوابى اذا قرات كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

(هـ) وفى المدح كقوله فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان

لم تبن هذا القصر بل صغته تاجا على مفرق جرجان

وقصرك المبنى من قبله ملكك والله هو البانى

فابيل نثار العبد بل نظمه فانه والدر مثلان

واسمع مقالا لم يقل مثله مذ كانت الدنيا لانسان

لو كان للخلق الهان لكان فخر الدولة الثانى

وفى البيت ما فيه من المبالغة القريبة من الكفر ومن الملق والنفاق ٠

(و) ونظمه فى الهجاء والمجون كقوله :

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن العيد من مال اليتامى

وقوله :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم : ما لها ؟
مشى ذا الثقيل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة ، غنية بالألوان والصور والأخيلة والمعانى ، ولكنه لا يرتفع به الى منزلة شعراء عصره الخالدين ، من أمثال المتنبى والرضى ومهيار وغيرهم ٠ وهو كذلك لا يصل الى منزلة نثره البليغ الرصين الرائع ٠

وعلى الجملة فقد كان (ابن عباد)(٦٥) شاعرا مجودا ، وبليغا

(٦٥) راجع فى الصاحب : المنتظم لابن الجوزى ـ يتيمة الدهر الجزء الثالث ـ وفيات الأعيان الجزء الأول ـ سلم الوصول (مخطوط) ـ ٠
معجم الأدباء لياقوت ـ الأعلام للزركلى ـ جميع كتب التاريخ التى أرخت للدولة البويهية والقرن الرابع الهجرى ـ كتب تاريخ الادب العربى ، من مثل تاريخ الأدب العربى للزيات ـ تاريخ آدب اللغة العربية لزيدان ـ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد زيدان ، تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ، الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ، أدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف ، تاريخ الأدب لحفنى ناصف ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، والحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ، وهما لكاتب هذا البحث ـ العصر العباسى للاسكندرى ، تاريخ الأدب العربى الجزء
=

محلقـا ، واديبـا مترسلا ، فى الصف الأول من ادباء عصره ، وقـد خلدته روائع شـعره ونثره على مر الزمان ٠

=

الثانى لمحمود مصطفى ٠ دوائر المعـارف من مثل : دائرة المعـارف الاسلامية ، دائرة معارف البستانى ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، الأعلام للزركلى — زهر الآداب للحصرى ، الصـــناعتين للعسكرى ، صـبح الأعشى القلقشندى ، النثر الفنى فى الرابع لزكى مبارك ، أمراء البيـان لمحمد كرد على ، الفن ومذاهبه فى النثر العـربى لشوقى ضـــيف ، المثـــل السائر لابن الأثير ، نهاية الأرب للنويرى ، الآداب السلطانية للفخرى — الوزراء والكتاب للجهشيارى ، نشوار المحاضرة للتنوخى ٠

وراجـع ديوان الصاحب ، ورســـالته : الكشف عن مساوىء المتنبى فى شـعره ، وكذلك مجموعة رسـائله ٠

وللدكتور بدوى طبانة كتاب عن الصاحب نشر فى سلسلة أعـلام العرب ، وللدكتور حامد داود حفنى كتـاب عنـه كذلك

الفصل الثالث

أبـو دلـف فى زحـام الحيـاة

أبو دلف الخزرجى

(٣٠٠ ـ ٣٩٠ هـ = ٩١٣ ـ ١٠٠١ م)

ـ ١ ـ

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القرن الرابع ٠

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ٠

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ٠

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من اعلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى عصره ٠

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة وحضور البديهة وسرعة النكتة ٠٠ وعلو ذوقه وجمال فكاهته مما حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء

وهو شخصية فذة اهتزت دوائر المشرق والمغرب بدراسة افكارها ونتائج رحلاتها القديمة فى شتى أنحاء آسيا ٠

ولقد كان بديع الزمان الهمذانى وثيق الصلة بأبى دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(٢)٠ وكانت شخصية ابى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستظرافه ، كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهو علم فيها ٠٠ كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه ،

---

(١) ١٠٧ من كتابى « الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى » ٠

(٢) ٣ : ٢٢٣ اليتيمة ٠

لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من ابى دلف وشخصيته بطلا للمقامات التى ابدعها ، ورمز اليه بأسم ابى الفتح الاسكندرى ٠

ونقول تأكيدا لذلك : أن جميع ما صور به البديع بطل مقاماته ابا الفتح الاسكندرى ينطبق على ابى دلف تمام الانطباق ٠

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهو جوالة فى الآفاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحبو فكاهة ، والعجك من قعود همته مع حسن التيه ، وهو كهل قد غبر فى وجهه الفقر ، وهو كما يقول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اسيح كانى المسيح فجلت خراسان الى كرمانى وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان والى عمان ، الى السند والهند ، والنوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف فجمعت من النوادر والأخبار والأسحار والفوائد ٠٠ ما قصر عنه فتيا الشعبى » ٠

واسم ابى دلف مسعر بن المهلهل ٠

ونسبته الى الخزرج احدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس ٠ والخزرج فى الاسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار اخوال رسول الله . لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » ٠

أما الينبعى فهو نسبة الى مدينة ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضا بالينبوعى ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز ٠

ونحن لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شيئا ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة ابى دلف شحيحة ونادرة ٠٠ وقد عنى المستشرقون باعمال ابى دلف الجغرافية وحدها ، ومن بينهم رون صوبر،

ومينورسكى ، وكراتشوفسكى . ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض دن حيــاة أبى دلف نفسها .

أما أم ابى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد(٣) ، كتبها وعيــدا ونهــديدا لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا يتتمى الى ابنة محمد بن زكريا الذى كان يعاصر لبن للعميد .

وقــد اعيانى البحث فى المصادر القــديمة عن شخصية محمــد ابن زكريا فلم أهتــد الى اثر لــه ، وقــد استطيع فى المستقبل الاهتداء الى ترجمة لــه تكشف عن شخصيته ، فاضيف الى صورة أبى دلف مزيدا من الوضــوح والرؤية .

واغلب الظـــن أن أبا دلف ولــد فى ينبــع ، وهــو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتـــابه ، « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٤) أيضا ، ويؤيد ذلك قــول ابى دلف فى رســالته التى وصف فيها رحلتــه الى الصين ، وهى الرسالة الأولى : « لمــا نبــا بى وطنى ، ووصــل تى السير الى خراسان ، ضاربا فى الأرض »(٥) . ويذكر خالـــدوف وبولناكوف فى تحقيقهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك ايضا ، اى أن ميلاده كان فى ينبــع ، ولكنهدا يخطئان فيقولان : ان مكان مولده هــو فى مدينة ينبــع الميناء على ساحل البحر(٦) ويقولان اثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولــد ووفاة ابى دلف .

وتذكر بعض المراجــع ، ومن بينها الأعــلام للزركلى ، أن أبا دلف

---

(٣) ساذكر فقرات من هــذه الرسالة عند الحــديث عن صــلة أبى دلــف بابن العميد - وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيــان التوحيــدى .

(٤) ص ١٨٨ .

(٥) راجــع ٥ : ٤٠٨ معجم البلــدان لياقــوت .

(٦) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف - ترجمــة محمد منير مرسى - نشر مكتبــة عالم الكتب بالقــاهرة .

مات نحو عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م ، وانه عاش نحو التسعين عاما ، فيكون ميلاده اذن فى خلافة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٠ - ٩١٣ م ٠

ويذكر الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » انه عمر تسعين عاما، فيقول عنه : خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب » ٠ ولكنه لا يحدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته ٠

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الاكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ، ومن اشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتابيه : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » ٠

وأبو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره أحد من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسيانا تاما ٠

والمصدر العربى القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح

والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خلق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب - يقصد - حضرة الصاحب بأصبهان ، ويؤثر المقام عنده ويتزود كتبه - أى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره » .

ويشير الثعالبى الى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ) .

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(٧) .

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : « وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٨) .

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٩) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا .. ودراسات كرتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف .

---

(٧) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر . للثعالبى - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٨) ٣ : ٤٠٠ يتيمة الدهر .

(٩) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفي عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، واربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه .

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين الكثير من دراسـات المستشرقين عنـه : رحـالة كبيرا ، وجغرافيـا مشهورا(١٠)

وتجيء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبـع » للشـيخ حمـد الجـاسر(١١) .

وفى كتاب الأعـلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عـدد سطور ممـا جاء فيـه عنه : شـاعر رحـالة ، وكان يكنى بالرحـالة الحجازى قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربيـة ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحـو عام ٣٩٠ هـ(١٢) .

ويلاحظ الشيخ حمـد الجاسر على هـذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهـو من ينبع النخل .

والثانى قوله فى « كتـاب ضخم » : ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقـد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى انه ليس كتابا ضخما بل رسالة، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى اخ » فذلك ليس عن رسالة ابى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى

---

(١٠) راجـع الطبعة الانجليزية الجـديدة من دائرة المعارف الاسلامية. وقـد ترجم النص الانجليزى لهـذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصل الى هـذه المـادة .

(١١) ١١٧ و ١٤٥ بـلاد ينبـع .

(١٢) ٨ : ١٠٩ الأعـلام للزركلى .

تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ·

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رور صوير ·

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف وبولناكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة لينجراد ·

- ٢ -

وهكذا عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى · وشاهد كل احداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى انحاء العالم الاسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ·

ولا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشاته · وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف · وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمنقصة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وادب وطواف بالآفاق ·

وفجأة ينبو بابى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن احمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ·

وكان الجيهانى أبو عبد الله بن احمد بن نصر وزير للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد الذى كانت بخارى عاصمة ملكة الواسع الذى امتد نحو الثلاثين عاما (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) ٠

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره ابا دلف ليكون مرافقا لهم ٠

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف ذلك كله فى كتاب الفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر انه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(١٣) ٠

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(١٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن احمد ذلك ، واستنكره لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه ان يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » ٠

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ،

---

(١٣) كنت اظن انه كتاب مستقل مفقود ، ولكن ابا دلف يبدو انه قسمه الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الاصلى وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لابى دلف ، انما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » ٠

(١٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت ٠

ودخـل الصين من مدينة « مقـام البـاب » ، فـوادى المقـام ، فسندابل العاصمة ٠٠ ويقول ابو دلف(١٥) :

ودخلت على ملكهم فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجـه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن احمـد ، فاجابهم الى ذلك ، واحسن الى والى الرسل واقمنا فى ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت الى خراسان ، الى نوح بن نصر ، فتزوج بهـا ٠ ويقـول ابو دلف :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، القى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى اشياء ، ويسالنى عن امور من أمور بلاد الاسلام ، ثم استاذنته فى الانصراف ، فاذن لى بعـد ان أحسن الى » ٠

وغادر ابو دلف الصين الى الهند حتى رجـع الى بلاده عن طريق سـجستان ٠

وزادت هـذه الرحلة من مكانة ابى دلف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحياة الاسلامية بصفة عامة ٠

تنقضى هـذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك ابن دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عبـاد ، والى عـواصهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان ، والرى ، وبغـداد ، واصبح رفيع المكانة عند عضـد الدولة الملك البويهى نفسه ٠

---

(١٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلـدان ٠٠ وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٤٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقـد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقـد دخـل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ٠٠ فهـل يقصـد المسعودى بذلك ابا دلف ؟؟

وكان ابن الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) امام عصره فى الادب والكتابة والبلاغة ، كما كان لـه مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ـ ٩٧٦ م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

وقد بدا أبو دلف يتصل به ، والظاهر انه اقبل عليه ثم اعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهددا برسالة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين »(١٦) ، وجاء فيها :

« الآن علمت ايها الشيخ انك ذى مكايد ، والى جميع ما انهاك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور » ..

الى أن يقول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم ادر كيف اخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاذبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« واول ذلك انك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمدا وما خلف بنتا » .

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما اندب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك ، وقولى : « ابو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ،وبين الصداقة والشفقة » .

---

(١٦) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ المرجع المذكور .

« فما زلت اقـول هـذا رشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثـله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الثلج لهم سـاعة هـذه • لأنى احتجت الى علمك فخيبت عهدى ، واقبلت غليـك فأغرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على ٠٠ ولقـد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك ٠٠ » •

ويقـول ابو حيـان التوحيدى(١٧) :

قلت لأبى دلف : ماذا اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم اجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلتـه •

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتـح منصب أبيـه فى عهـد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عبـاد ويقـدمه • وانتهى الأمر بمقتل ابى الفتح الوزير عـــام ٣٦٧ هـ •

أما الصاحب بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٢ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) فهـو الوزير البويهى الكبير الذى وزر لبنى بويه طيلة ثمـانية عشر عـاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) •

وصـــار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(١٨) ، يجلس فى مجالسـه فى أصبهان والرى منادمنا ، ومادحـــا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجـوبة العصر(١٩) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر غاما

---

(١٧) ٢٩٢ مثالب الوزيرين •

(١٨) راجـع عنه : ٢٦٨/٢ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العبـاسى الثانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدب لياقـوت •

(١٩) ١ : ٧٥ رفيـات الأعيـان •

(٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت لــه خزانة كتب فيها نحــو ربع مليــون كتــاب(٢٠) .

وقــد احتف بالصاحب من نجــوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضــل ، وفرسان الشعر ، من يربى عــددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخــذ برقاب القوافى ، وملك رق المعــانى . فانه لم يجتمع بباب أحــد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع ببــاب الرشيد من فحــول الشــــعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عبــاد بأصبهان وجرجان مثل أبى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمــذانى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمــة الدهر »(٢١) .

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شــعراء الصـــاحب ومنادميــــه وجلاســــه(٢٢) .

ويقــول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر ابن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطيب ويتنجم(٢٣) .

وكان الأدباء يجــدون فى ظــل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، ممــا حــل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقــع ، فقــد صارت العراق ـ كما يقول المقــدسى ـ بيت الفتن والغلاء(٢٤) . واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقــة ، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) وغـــيره .

---

(٢٠) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

(٢١) ١٦٩/٣ اليتيمـــة .

(٢٢) ٣ : ١٨٩ المرجــع نفســه .

(٢٣) ٢ : ٤٠٠ المرجـــع .

(٢٤) ١١٣ أحسن التقاسـيم .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(٢٥) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه « لطائف المعارف » :

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الداولة بشيراز مطايبة ومداعية ، ومحاضرة ، ومذاكرة انتصر فيها أبو دلف على صاحبه انتصارا كبيرا ٠

فأعجب عضد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفور حظه من طوافه بالمشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى ٠٠٠ ولم يملك الا بن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التى لم يقلها ملك فى أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف ٠٠(٢٦) ٠

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » ٠

وأمر له بخلعة وصلة حسنة ٠

وتدل هذه القصة على ما يلى :

١ ـ كثرة طواف أبى دلف بالعالم الاسلامى ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه ٠

٢ ـ حضور بديهته ووفرة أدبه ٠

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ٠

---

(٢٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

(٢٦) ٢٣٩ المرجع السابق ٠

٤ ـ وفرة حظه من بين منادم الملوى وحسن مجالسهم ٠

وترفى عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعده بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ٠

ـ ٣ ـ

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته ووصافه للبلاد التى رحل اليها وطاف بها ٠٠ وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ٠ والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك : الهند والصين ، وأسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر امرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ٠

يصفه ابن النديم(٢٧) بالجوالة ، ويذكر القزوينى انه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢٨) ، وانه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها(٢٩) ٠

(٢٧) ٣٤٦/١ الفهرست ٠
(٢٨) ٢٦٧/٢ آثار البلاد ٠
(٢٩) ٩٧ عجائب المخلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى زعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : أخبر بهـذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سـيـاحة رآها كلهـا(٣٠) .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد لـه الباحثون من المستشرقين بالدقـة والصـدق والواقـع ، وان كان ياقـوت الحمـوى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٣١) ، ويعنى بذلك أن رحـلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وتكفل لنـا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم .

ولقـد كان أبو دلف أحـد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحـدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية .

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهـو القرن الرابع الهجـرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استلبت عن خلافـة بغـداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحـد العقيدة واللغـة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحـده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجرب البـلاد ، وأن يسير فى للمـالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب . لا يحـده حـد ، ولا يغـله قيد ، ولا يحـول بينه وبين نهمه العلمى حائل .

وقـد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلتـه غبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقـد قـام المستشرق الألمـانى رور صوبر عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبـدو أن أبا دلف جمـع مادتها من الذاكرة بعد قيـامه برحلته هـذه بمـدة تطـول أو تقصر ، وتتضمن لرسالة الى جانلا صـدقها الكثير من المعـلومات التقريبية والخيالية عن هـذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها .

---

(٣٠) ٨٥٩ المرجـع السـابق .

(٣١) ٣٢٦/٥ معجم البلـدان لياقـوت .

وفى مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف(٣٢) ·

« انى لما رأيتكما يا سيدى — اطال الله بقاءكما — لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، احببت أن لا اخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » ·

والظاهر — كما ارجح — أنه يخاطب احد الملوك المعاصرين والصاحب بن عباد ، وانه حين كتب هذه الرسالة اهدى منها نسخة الى هذا ، واخرى الى ذاك ، وهذا يدل على انه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة ·

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وشلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية التى نشرها عن الشرق الأقصى ·

والقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج ·

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضع خط رحلة أبى دلف الى الصين ·

وكذلك فعل بارتولد ، ومينورسكى (١٧٦٧) الذى قال عنها : أن فى الرحلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرجلاته — كما يقول مينورسكى — خلط وتعقيد

---

(٣٢) ٤٠٨/٥ و ٤٠٩ معجم البلدان ·

شديدان ، وان كان يعـد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصـين والهند ، ويشكك اخيرا هـذا المستشرق فى حـدوث رحلات أبى دلف ٠

ويرد عليه كراتشرفسكى فى كتـــابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٣٣) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعـة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حـدوثها روايات ابن النـديم فى كتابة « الفهرست » عن أبى دلف(٣٤) ٠ بل أن الرجـل لم يترك أدنى شـك لدى خبير بالموضوع مثل فيراين (١٩١٣) ٠

ويؤكد رور صـوير (١٩٣٩) انه لا أساس للقـول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجـدت دلائل على صحتها فى سفارات متاخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما اكد الباحثون دقـة ملاحظات ابى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية وفى وصـفه لمشاهـده عـامة ٠

وفى هـذه الرحلة يذكر ابن دلف الأوانى الصينية وانهـــا كانت مفضلة فى الأسواق ، وان الخزف الصينى كان يقلـد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى مليبـار وايران ٠

وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار ابو دلـف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما اظن وكما اشار الى ذلك الثعالبى فى « اليتيمـة » ، امكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حمـــاية الوالى على سيستان من قبـل ابى محمد بن أحمـد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣) والف ابو دلف فى وصف هـذه الرحلة ومشاهد منها عبر ارمينية واذربيجان وايران رســالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقـول فى مقـدمتها على طريقته نفسها فى مقـدمة الرسالة الأولى ٠

« جردت لكما ، يا من انا عبدكما ، ادام الله لكما العز والتاييد ،

---

(٣٣) ص ١٨٩ من الكتـاب ٠

(٣٤) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرسـت : ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرسـت أيضا ٠

والقـدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهنـد ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الان تجريد رسـالة ثانية ، تجمـع عامة ما شاهدته وتحيط باكثر ما عاينته · لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العـزة والطمأنينة ، ويثقف به راى من عجز عن سياحة الأرض »(٣٥) ·

واللذان يوجه هما أبو دلف اليهما فى هـذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبـدو من هـذه المقـدمة الموجزة الصغيرة ·

ولهـذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهميـة كبيرة ، كما سنذكر بعـد قليـل ·

وتبـدأ وقائع هـذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » فى جنوبى أذربيجان لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وارمينية · ومن هنـا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهـذه البـلاد ، وهى الى جانب هـذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفـة ، والمشاهدات العجيبـة ، والنـوادر الغريبة ، وبعضها ممـا يحير العقـول ·

وتتميز هـذه الرسالة بتركيز شـديد ، ودقـة متناهية وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عـداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسـيا الوسطى · وتحتـوى على معلومات جلية متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وعن المعادن المفيدة فى ارمينية ، وأبو دلف أحـد الرحالة الأوائل الذين تحـدثوا عن استخراج النفط فى باكـو ، وما أروع ما كتبـه عن معـدنيات وطواحين تفليس ،

---

(٣٥) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة ، نشر عالم الكتب ـ مطبعة مخيمر · وقـد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمـة « شـافية » وهى خطأ ·

ولا يستغنى عن دراســـتها مؤرخ او جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر ابو دلف أكثر من اربعين موضعا يوجـد فيها المعـــادن ، وأماكن اخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين ·

ولقـد حقق مينورسكى هـذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ فى ٣١ صـحفة بالنص العـربى + ١٣٦ صـفحة الترجمـــة الانجليزية والدراســـة ·

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦م ·

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمـــة محمـــد منير موسى عام ١٩٩٦٦ م ·

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطـوطة تشتمل على اربع رســائل :

١ ـ رســالة ابى دلــف ·
٢ ـ رســالة ابن فضــلان ·
٣ ـ رســالة فى أخبار البلـدان لابن الفقيه ·
٤ ـ رســالة اخـرى ·

واصبح لهـذه المخطوطة اهميــة كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القـديم ·

ورســالة أبى دلف فى مخطوطة مشــهد تشتمل على رســالتيه الأولى والثانية وقـد ذكرت على أنهما كتاب واحـد ·

ويبـدو أن هـذا الكتاب كان قـديما يسمى « عجائب البلدان » كما نقلنـا عن القزوينى وياقوت ، وذكره بهـذا الاسم كذلك بروكلمان ·

وابو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعـادن والآثار ، وطالمـا يقف أمام الأشياء وقفة تامل للوصول الى دخائلها ·

ومن اهمية البحث الجغرافى الذى قـام به أبو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهر زور ، وتوجـد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى . ومن وصف ابى دلف لهـذه المدينة : امكن للعلماء الروس تحـديدها واستخراج آثار تخت سـليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثـل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمـة جبـل ديكاوند فى فارس ودخـوله كهفـا فى هـذا الجبل ورصـده لظاهرة وجـود نار مشتعلة فيـه(٣٦) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغـارة خزارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملـوك العرب والعجم ، ويتحـدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحـو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول ابى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هـذه البـلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجـة لهـذا الشـك .

وبعـد فقـد كان ابو دلف ابن ينبـع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقـد نالت رسـالتاه أعظم اهتمام فى عـالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العنـاية والدراسـة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعـدد : فهـو يظهر لنـا فى صـورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القـديمة .

كما يظهر فى صـورة الجغرافى المتمـكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيـق العـالم بطبقـات الأرض وصخورها ، ممـا يرفـع من منزلته بين العلمـاء .

---

(٣٦) الرسـالة الثانيـة ص ٨٧ .

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والزانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط ارمينية واذربيجان »(٣٧) .

- ٤ -

وقد عاش أبو دلف عالم ينبع واديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى .

واشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف لـه الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أى رائيته الساسانية .

---

(٣٩) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) .

الفصل الرابع

أبو دلف فى كتابات الباحثين ـ عصره ـ صور من حياته

ابو دلف فى كتابات الباحثين :

ابو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره الا القلة من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسيانا تاما ٠

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله او جله ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما اذهل اوستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول ، ومن اشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وابو دلف من هذا الجانب مصدر اصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين اتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتابيه : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » ٠

والمصدر العربى القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال عنه «

« ابو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير

الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن ابى دلف ، فيقول : « كان ينتاب - يقصد - حضرة الصاحب باصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزود كتبه - اى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره » •

ويشير الثعالبى الى معـــركة الهجـــاء التى دارت بين ابى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ) •

ويذكر شعراً لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(١) •

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكمى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٢) •

ويشير الثعالبى الى ابى دلف فى بعض كتبـه الأخرى اشـارات عابرة ، مثل كتـابه « لطائف المعـارف » •

ونجـد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجـائب المخـلوقات » و « آثار البـلاد »(٣) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلـدان » لياقوت الذى يشير الى ابى دلف فى ٣٤ اقتباسا ، ودراسات كراتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقـوت اسم أبى دلف •

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين

---

(١) راجـع ٣ : ٢٥٢ وما بعـدها يتيمـة الدهـر • للثعـالبى - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمـة الدهـر •

(٣) فى كتـاب « آثار البـلاد » يوجـد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى ابى دلف الا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجـد كذلك اشارات كثيرة لـه ، وأربع اقتباسات دون اشـارة الى اسمه •

الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا ، وجغرافيا مشهورا(٤) ٠

وتجيء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر(٥) ٠

وفى كتاب الأعلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عدة سطور ومما جاء فيها عنه : شاعر رحالة ، وكان يكنى بالرحالة الحجازى ، قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحو عام ٣٩٠ هـ(٦) ٠

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على الترجمة امرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله : فى « كتاب ضخم » ٠٠ ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة والنص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى انه ليس كتابا ضخما بل رسالة ، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ٠

---

(٤) راجع الطبعة الانجليزية الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية وقد ترجم النص الانجليزى لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين - الطبعة العربية لم تصل الى هذه المادة ٠

(٥) ١١٧ و ١٤٥ بلاد ينبع ٠

(٦) ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلى ٠

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها اومستشرق الألمـــانى رور صـــوير ٠

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، وميتورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولغاكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة لينتجراد ٠

عصـر ابى دلـف :

عاش ابو دلف فى القرن الرابع الهجـــرى ، العاشر الميلادى ٠٠ وشاهد كل أحداث هـذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيـه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما سادة من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغـداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العـالم الاسلامى الذى كانت من قبـل تجمعـه رابطـة سياسية واحـدة ، ومن هـذه الدول :

١ ـ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) ٠

٢ ـ الدولة الفاطمية بمصر والشام ايضا (٣٥٩ ـ ٥٦٧ هـ) ٠

٣ ـ والحمدانية بحلب والموصـل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) ٠

٤ ـ والسامانية فى تركستان ، وعاصمتها بخـارى (٢٧١ ـ ٣٨٩ هـ) ٠

٥ ـ والزيارية فى طبرستان ، ومن ملوكهـا الشاعر الأمير قابوس ابن وشمكير (٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ) ٠

٦ ـ والغزنوية فى غزنة والهند ، ومن اشهر أمرائها السـلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ) ٠

٧ – ودولة سجستان ومن اشهر امرائها خلف بن أحمد ، وهو من احفاد الليث(٧) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة من عام ٢٥٤ هـ حتى عام ٣٩٠ هـ ·

٧ – الدولة العلوية فى طبرستان ، ويذكر ابو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره(٨) (٢٥٠ – ٣١٦ هـ) ·

وقد أثرت الاضطرابات والحروب بين هذه الدول فى القرن الرابع الهجرى فى احوال البلاد الاسلامية والمسلمين ·

نشأة أبى دلف الأولى :

لا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته · وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة – وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف · وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار ابو دلف شاعرا ، وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ·

وفجاة ينبو بابى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ – ٣٣١ هـ : ٩١٤ – ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار ابو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ·· كما سنرى ذلك فى الفصل التالى ·

---

(٧) ٣ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه ·

(٨) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبى دلف ، – نشر عالم الكتب بالقاهرة ·

الفصـل الخـامس

أبو دلـف فى ظـلال السامانيين

- ١ -

السامانيون(١) اسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيرا فى القـرن الثالث الهجرى حتى نال اميرها نصر السامانى (عام ٢٦١ هـ) فى عهد الخليفة المعتمد على الله اسـتقلالا ذاتيا ، وظـل يحـكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ٠٠ وخلفه من ذريته :

١ - اسماعيل السامانى (٢٧٩ - ٢٩٥ هـ) ٠

٢ - احمـد بن اسماعيل (٢٩٥ - ٣٠١ هـ : ٩٠٧ - ٩١٤ م) ٠

٣ - نصر بن احمـد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م)، وهـو الذى عاش فى ظـلاله أبو دلف ، ولا نعرف شـيئا عن الظروف التى قادته الى بلاط هـذا الأمير ، ولا مقـدمات صلته به ٠ وفى عهـد هـذا الأمير السامانى كانت الدولة السامانية قـد بلغت أوج عزتهـا وذروة مجـدها ٠

٤ - نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ - ٩٥٤ م) ٠

٥ - الى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الاسلامى ، ومنهم : نصر بن نوح السامانى (٣٤٣ - ٣٧٦ هـ) ، ونوح بن منصـور (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) ٠

وكانت بخارى قـد صارت عاصمة السامانيين ، واصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء ٠

---

(١) راجـع ١١ : ٧٦ - ٨٢ دائرة المعارف الاسلامية ٠

وكان الجيهانى(٢) ابو عبد الله محمد بن احمد بن نصر وزيرا للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الادباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن ابا دلف ، او اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن احمد .

- ٢ -

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى ، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره ابا دلف ليكون مرافقا لهم .

وزار ابو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليار ، ووصف ذلك كله فى كتاب الفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر انه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(٣) .

---

(٢) راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الادب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيرا فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير الى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : انه كان اديبا فاضلا . وقد الف الجيهانى كتابا فى صورة العالم - اى فى الجغرافيا - بعنوان « المسالك فى معرفة الممالك » وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع ابا دلف وابن فضلان على اعمالهم الجغرافية .

وهو الذى اغرى ابا زيد البلخى (٢٣٥ - ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال الى بخارى ، وكان بين البلخى والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخى اعتذر له ، والف البلخى كتابه « صورة الاقاليم عام ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م » بتشجيع من الجيهانى . وفى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصورة الاقاليم لابى زيد البلخى » وهو برقم ١٤ جغرافيا - ويذكر الاستاذ احمد عبد الغفور عطار ان نسبة هذا المخطوط الى البلخى خطأ وانه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

(٣) كنت اظن انه كتاب مستقبل مفقود ، ولكن ابا دلف يبدو انه قسمه
=

وفى آخر حكم نصر بن احمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص ابو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فابى نصر بن احمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه ان يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسندابل العاصمة .. ويقول أبو دلف :

واقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى اشياء ، ويسالنى عن امور من امور بلاد الاسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فاذن لى بعد ان أحسن الى .. » .

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجع الى بلاده عن طريق سجستان(٦) .

=

الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو - عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، وانما ذكر مكانها كتاب - عجائب البلدان » .

(٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان .. وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رايت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط .. فهل يقصد المسعودى بذلك ابا دلف ؟

(٦) يروى أن الاسلام دخل الصين فى عهد الخليفة عثمان وفى عصر أحد ملوك آل تانغ يقال له : تائى جون ، ويقال ان الملك الصينى الذى

=

وزادت هــذه الرحلة من مكانة ابى دلــف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحيــاة الاسلامية بصفة عامة ٠

وخلال حكم امبراطور الصين « هــوان تسونج » ٧١٢ ـ ٧٥٦ م وقعت فعلا صــدامات مسلحة بين الخلفــاء العرب وهــذا الأمبراطور فى ثلاث مناسبات معروفة وكان أعنفها عــام ١٣٤ هجرية وذلك فى معــركة « تالاس » التاريخية وفى هــذه المعركة هــزم الجيش الصينى بقيــادة « كاوهسين » على يد الجيش العربى وســجلت هزيمة كبرى فى مــلطة الأمبراطور « تانج » وسط آسيا وبدأت السيطرة العربية على هـــذا الجزء من العــالم ٠

ويقــول التاريخ الصينى المخطوط فى هــذه المنطقـــة أن علاقات الصــداقة قــد عادت بعــد ست سنوات بين الشعبين الصينى والعربى ٠٠ بل ان شعبنا العربى ساعد بالجنود العرب المسلحين بلاط تانج لاخماد عصيان يقــوده جنرال الحــدود « آن لوشان » ٠

وأول من كتب عن الاسلام باللغــة الصينية هــو « تدهــوان » الذى كان قــد اسر فى معركة « تالاس » ثم قضى نحــو ١١ ـ ١٢ سنة وهــو يتجــول فى شبه الجزيرة العربية قبــل أن يعــود الى مدينة « كانتون » مــع قافلة تجارية وقــد نقــل هــذا الأسير عــددا من الحرف الصناعية وكثيرا من الفنــون ٠

وان عــددا كبيرا من البعثات والتجارة والجنود العــرب قــد زاروا الصين خــلال حكم تانج فى القرن السابع ، وحتى القرن العاشر وهـــو

دخــل الاسلام فى بلاده فى عهــده هــو « ســوزون » من آل تانغ أيضــا ، ويقال كذلك أن الاسلام دخــل الصين فى عصر الرسول عــام ٦٢٨ على يد صحابى هــو دهاب بن أبى كبشة ، بعثــه الرسول الى كائى هــونغ من ملوك آل سوتى ٠

الزمن الذى دخل فيه الاسلام الى الصين ·· وقد ظهرت آثار حول الاسلام والعرب فى هذه الفترة ولكنها قليلة جداً ·

فهناك اللوحة الشهيرة النادرة التى تشير الى تاريخ بناء جامع شيان فى السنة ٧٤٢ لحكم منج ، والمعلومات الأكيدة تثبت بناء هذا المسجد فى القرن السادس عشر ·

كما أن مئذنة مسجد برزتج ،وكذلك القبر الملاصق له والذى يقال انه قبر « الوقاص » من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم،قد ثبت انه بنىايام حكم « سونج » بالقرن العاشر الى الثلث عشر » كما انه ليست هناك اية اشارة فى التاريخ الصينى الى هذا الموضوع ·

ولكن هناك قول فى الصين بأن مدافن الملائكة فى ليخشان بشوانشكو بمقاطعة فوكين والذى يطلق عليها القبور المقدسة لملائكة الرحمة وتنسب للملاك الثالث والملاك الرابع اللذين أتيا للصلاة كما يقولون ، هنا خلال حكم تانج وقد وصفوهم بالملائكة لأنهم اول المسلمين فى هذه الديار ·

ولكن هذه القبور فى الحقيقة هى قبور عربية لأولئك العرب الذين عاشوا أيام حكم سونج عندما كان العرب ينظرون الى هذه المقاطعة ويسمونها مقاطعة الزيتون وهى اكبر ميناء فى العالم كما وصفها الرحالة العربى ابن بطوطه ·

وقد اكتشف فى الأسابيع الماضية بمقبرة سيان الاسلامية ثلاث قطع لعملة ذهبية عربية وهذه بقايا اصلية لهذا العصر الاسلامى فى المنطقة ·· وقد فحصت هذه المقبرة والتى اكتشفت حديثا عام ١٩٦٤ وحفرت عام ١٩٦٥ بواسطة لجنة الآثار الصينية ·

وقد اتضح أن هذه المقابر شبيهة بنفس المقابر الخاصة فى نفس الفترة من الزمن والتى عثر عليها فى مدينة سيان عاصمة الصين

قديما وقد بنيت قباب القبور من الطوب المربع الدائرى وله باب فى الناحية الجنوبية يفتح على ممر له قبة يؤدى الى منحدر ٠

وقد عثر داخل هذه القبور الحديثة على ثلاث قطع ذهبية وثلاث جرات فخارية وانية من الخزف الصينى وعلى جانبى كل قطعة عملة توجد نقوش كتبت بالكوفية ٠

ويقول الصينيون انه منذ ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية ، فانه قد نجح فى أقل من عشرين عاما فى النفاذ الى سوريا والعراق ومصر ٠ وفى البداية لم يكن للحكام المسلمين عملتهم الخاصة بل كانوا يستخدمون عملات بيزنطه والعملة الساسانية فى بلاد الفرس والتى كانت منتشرة حينئذ ٠ ولكن سرعان ما بدأوا يصنعون عملتهم وان حافظوا على الشكل القائم ٠

وقد تم انقلاب العملة فى سنة ٧٧ هجرية « ٧٩٦ ـ ٦٩٧ ميلادية » حيث لم تعد ، وفق المنطق الاسلامى ، فهناك صور للبشر أو الحيوانات على العملة ٠٠ وكانت النقوش مقتصرة على اقتباسات من القرآن ٠ وقد تغيرت عملات كل البلدان الاسلامية بعد ذلك الى نفس النمط ٠٠ ويضيف رجال الآثار الصينيون قولهم :

ان هذه العملات لها أهمية خاصة ، لا لأنها أول عملات توجد فى الصين للعصر الأموى ، بل لأنها أول عملات اسلامية توجد فى الصين ٠ والعملات الاسلامية الأخرى التى وجدت فى سينكيانج تعود الى زمن متأخر جدا ، الى القرن الحادى عشر ، بل ان اغلبها قد سك محليا على يد اهالى سينكيانج بعد أن اعتنقوا الاسلام ٠

وفى عام ١٩٢٨ اكتشف البرفيسور هواهج دين بى فى مقبرة تانج فى تورفان بمقاطعة سينكيانج عملة اسلامية قديمة ٠

وقد اطلعنا فى هذه المقاطعة الاسلامية على عادات وتقاليد اسلامية والحقيقة ان الأخلاق فى الصين كلها مفخرة من مفاخر الاسلام٠

الفصل السادس

أبو دلف فى ظلال البويهيين

- ١ -

تنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا تدرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، والى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : اصبهان والرى ، وبغداد ، واصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه .

- ٢ -

وتاريخ البويهيين حافد بالانتصارات الكبيرة ، فهذه الأسرة الفارسية(١) التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها احمد بن بزيه الى دخول بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى عام ٣٣٤ هـ فى خلافة المستكفى بالله ، واصبح بجوار الخليفة سلطانا أو ملكا على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) ، وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٣ هـ) ، وغيرهما من ملوك البويهيين .

واستبد البويهيون بالخلفاء استبدادا كبيرا ، فلهم الملك والنفوذ والسلطان .

---

(١) ينسب البويهيون انفسهم الى بهرام جور (٨ : ١٩٧ ابن الاثير) . وبهرام جور هو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ ـ ٣٤٨ م) . وأحمد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الاخوة الثلاثة العالم الاسلامى باسم الخليفة العباسى . وأقام معز الدولة فى بغداد ، وركن الدولة فى الرى ، وعماد الدولة فى شيراز .

وصار الذى فى ايدى العباسيين انما هو امر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠ هـ) فى كتابه « الآثار الباقية »(٢) ، وحتى صار الخليفة لا يامن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا .

خلعوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، وولوا مكانه المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٧٣ هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) ، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) ، فقال فى ذلك الشريف الرضى :

امسيت أرحم من اصبحت اغبطه
لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى(٣)

ومن اشهر وزراء البويهيين وزيران :

اولهما : ابو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) وكان امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ - ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨ هـ - ٩٣٩ م .

وقد بدا أبو دلف يتصل به ، والظاهر انه اقبل عليه ثم اعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهددا برسالة طويلة

---

(٢) ٢ : ١١٣ المرجع .

(٣) ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضى ، ٣ : ٢٠٢ تجارب الأمم لمسكويه ، كتاب (الحياة الادبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » .

رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين »(٤) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ انك لى مكايد ، والى جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وغلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضله لسانك مسحور .. » .

الى ان يقول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمدا وما خلف بنتا » .

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى المرت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما اذنب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك ، وقولى : « أبو دلف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة » .

« فما زلت اقول هذا وشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الفلج لهم ساعتى هذه ، لأنى احتجت الى غلمك فخيبت غهدى ، وأقبلت عليك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على .. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك .. » .

---

(٤) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجع المذكور .

ويقـول ابو حيـان التوحيدى(٥) :

قلت لأبى دلف : ما اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم اجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته، وشره وغائلتـه ..

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنـه ابو الفتح منصب ابيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقـدمه وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتـح الوزير عام ٣٦٧ هـ .

اما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار : فهـو الصاحب ابن عباد (٣٢٤ - ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ - ٩٩٥ م) الوزير البـويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧ - ٣٨٥) .

وصار ابو دلف قريب المنزلة من الصاحب(٦) ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحاً ، وكان الصاحب ندرة الدهـر ، واعجـوبة العصر(٧) . وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٣٦٧ - ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحـو ربع مليون كتاب(٨) .

وقـد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وافراد العصر ، وابناء الفضـل ، وفرسان الشعر ، من يربى عـددهم على شـعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخـذ برقاب القوافى ، وملك رق المعـانى . فانه لم يجتمع بباب أحـد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد

---

(٥) ٢٩٢ مثالب الوزيرين .

(٦) راجع عنه : ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ تاريخ الادب العربى لبروكلمان - كتـابى الحيـاة الادبية فى الأندلس والعصر العباسى الثـانى - ١٣ : ٩٧ معجم الادباء لياقـوت .

(٧) ١ : ٧٥ وفيـات الاعيـان .

(٨) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت .

من فحزل الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد باصبهان والرى وجرجان مثل : ابى الحسن السلامى ، وابى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وابى القاسم ابن ابى العلاء ، وابى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٩) .

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(١٠) .

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بابى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(١١) .

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق ـ كما يقول المقدسى ـ بيت الفتن والغلاء(١٢) واحترف اكثر العلماء والأدباء صناعة الوراق ، كابى حيان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة(١٣) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة ابى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه لطائف المعارف » :

---

(٩) ١٦٩/٣ اليتيمة .

(١٠) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه .

(١١) ٢ : ٤٠٠ المرجع .

(١٢) ١١٣ احسن التقاسيم .

(١٣) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما . ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده ابو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) .

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ـ ومحاضرة ، ومذاكرة ٠

فقال أبو على لأبى دلف :

صب الله عليك طواعين الشام ، وحمى خيبر ، وطحال البحرين ، وساميل الجزيرة ، وسناقر دهستان(١٤) ، وضربك بالعرق المدنى(١٥)، والنار الفارسية ، والقروح البلخية ٠

فقال لـه أبو دلف :

يا مسكين ، أتقرأ « تبت » على أبى لهب ، وتنقل التمر الى هجن ٠

بل صب الله عليك : ثعـابين مصر ، وافاعى سجستان ، وعقـاب شـهروزور ، وجرارات(١٦) الأهـواز ٠

وصب على برود اليمـن ، وقصب مصر ، ودبابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، واكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمـائم الأبلة ، وسقلاطون(١٧) بغـداد ، وسنجاب(١٨) خـرخـير(١٩) ، وسمور(٢٠) بلغار ، وثعالب الخـزر(٢١) ، وفنك(٢٢) كاشـغر ، وفاقم(٢٣) التعز غـز ، وحواصل(٢٤) هرارة ، وتكك(٢٥) ، وجوارب قـزوين ٠

---

(١٤) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ٠ ودهستان : بلـد مشهور قرب خوارزم وجرجان ٠

(١٥) مرض يصيب الانسان ، ينسب الى المدينة ، لكثرته فيها ٠

(١٦) نوع من الحشرات ٠

(١٦) ثياب من الحرير موشاة بالذهب ٠

(١٨) حيـوان تصنع منـه الفراء ٠

(١٩) موضع ينسب اليـه جنس من الترك ٠

(٢٠) دابة يتخـذ من جلدها فراء ثمينة ٠

(٢١) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) ٠

(٢٢) ثعلب صـغير ٠

(٢٣) حيـوان فروه من أفخم الفراء ٠

(٢٤) الجلود تلبس للتدفئـة ٠

(٢٥) رباط السراويل ٠

وافرشني : بسط ارمينية ، وزلالي قاليقلا ، ومطارح(٢٦) ميسان ، وحصر بغـداد •

واخـدمني : خصان الروم ، وغلمان الترك ، وسراري بخاري ، ووصـائف سمرقنـد •

وحملني على : عتاق البادية ، ونجائب الحجـاز ، وبراذين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغـال برذعـة •

ورزقني : تفـاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجـوز الهند ، وباقـلاء الكوفة ، وسـكر الأهـواز ، وعسل اصبهان وتمـر كرمان ، ودبس أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغـداد ، وعنـاب جرجان، واجاص بست ، ورمان الرى وكمثرى نهـاوند ، وسفرجل نيسابور ، ودشمش طوس ، وملبن مرو ، وبطيخ خوارزم •

واشمني : مسك تبت وعـود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصـور(٢٧) واترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان(٢٨) وورد جور ، منثور بغـداد ، وزعفران قم(٢٩) •

فاعجب عضـد الدولة بكلام ابى دلف ، ووفـور حظـه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقـوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى •• ولم يملك الا أن صاح بملء فيـه بهـذه العبارة العجيبـة التى لم يقلهـا ملك فى احـد من الأدباء أو الرعية ، قال عضـد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلـف ••(٣٠) •

---

(٢٦) بســـــط •

(٢٧) بلـد قرب الصـين •

(٢٨) بلـد بالجبـل •

(٢٩) ٢٣٤ - ٢٣٩ لطائف المعارف للثعالبى - بتحقيق الأبيارى والصيرفى•

(٣٠) ٢٣٩ المرجـع السـابق •

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » ·

وأمر لـه بخلعـة وصـلة حسنة ·

وتدل هـذه القصة على ما يلى :

١ ـ كثرة طواف أبى دلف بالعـالم الاسلامى ، ووقـوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلـد من بلـدانه ·

٢ ـ حضور بديهتـه ، ووفرة أدبه ·

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ·

٤ ـ وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم ·

وتوفى عضـد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعـده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ·

وفــاة أبى دلــف

تقاذفت الأيام بأبى دلف ، وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريمــا كالملك الســامانى ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البــويهى ٠

ورأى الحيــاة من حــوله لم تعد تحتفى بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبــا من رعايتهــا ٠

وشاهد نتائج رحلاته وطــوافه بالبلاد ، وتدويخــه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شــيئا مذكورا ٠

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبى ، السلامى ، القاضى الجرجانى ، وأبا سعيد الرستمى ، والبستى ٠

واقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمى البــديع الهمذانى ، الصابى ، الصاحب ، ابن العميد ٠

وقــد طوت كل هــؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحيــاة الى مصيرها المحتــوم ٠

فأسلم نفسه للمقادير ، الى أن لقــى ربه نحــو عــام ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م كما أرجح ، او عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمــد الجاسر فى كتابه « بلاد ينبع » نقــلا عن « الأعلام » ٠

الباب الثالث

رحلات أبى دلف

الفصل الأول

الرحالة المسلمون قبل أبى دلف

اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعا كبيرا ، بتأثير الحج والتجارة ، والرغبة فى نشر الاسلام ، ولطلب العلم ولقاء العلماء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيام ببعض المهام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفدون الرسل والسفراء الى مختلف أنحاء العالم .

ومنذ خلافة ابى بكر الصديق نجد عبادة بن الصامت ، وهشام ابن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون الى القسطنطينية فى رسالة من الخليفة أبى بكر الى ملك الروم يدعوه فيها الى الاسلام ، ويقول عبادة بن الصامت : واقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا اله الا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفة ضربها الريح .

ولما لقوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا اله الا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم .. ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صندوقا فيه صور الأنبياء من آدم الى محمد عليه السلام(١) .

واستمرت الرحلات السياسية خلال العصور ، فنجد عمارة ابن حمزة يحمل رسالة من المنصور الى ملك الروم(٢) .

ومن الرحلات المشهورة رحلة سلام الترجمان الى سور الصين

---

(١) راجع ص ١٤١ - ١٤٣ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .

(٢) راجع ١٣٧ و ١٣٨ المرجع السابق .

الشمالى بأمر الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ٠

ثم رحلة سليمان السيرافى ، وقد زار الهند والصين مرارا ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافى أول رحالة مسلم يشير الى الشاى الذى يشربه الصينيون كثيرا ، ويسمونه « ساج » ٠

وقد قام بعده ابن وهب القرشى برحلة الى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م ٠

وفى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا الى كوريا ٠

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م برحلة الى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذى أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما فى حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر اتل كما تسميه المصادر الاسلامية) ، أما الأخرى ففى حوض نهر الطونة ٠

وقد زار ابن فضلان الأولى(٣) على نهر الفولجا ، ويذكر ابن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسة » الذى ألفه نحو عام ٢٩١ هـ/ ٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الاسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا فى الاسلام الا قبيل الرحلة بأعوام ٠

---

(٣) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطىء الفولجا الأيسر ٠

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٩ هـ الى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الاسلام ٠

وقد خرج الوفد من بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ/الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها فى الثانى عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ/الثانى عشر من مايو عام ٩٢٢ م ٠

وقد ادت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا الى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان ، ويبدو أن ما كتبه هو الذى قدمه الى الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

وقد نقل ياقوت الحموى جزءا من رحلته فى مادة : اتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم ٠

ونشرت الرحلة فى روسيا عام ١٨٢٣ ، وافاد منها بروتولد الروسى فى الدراسة التى كتبها عن البلغار فى دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام فى دراستين له غن البلغار المسلمين ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى فى مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبى دلف ، ورحلة ابن فضلان ٠

وهذه الرحلة تعد اقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان اليها ٠ ويصف فى رحلته حفل دفن زعيم روسى ، وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان ، وزين بهذا الرسم احد جدارن المتحف التاريخى فى موسكو ٠

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطى

الأندلسى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م ٠

وقد تحدث المسعودى (ت ٢٤٦ هـ - ٩٥٧ م) فى الجزء الأول من كتابه « مروج الذهب » عن البلغار ٠٠ وقد سقطت مملكة البلغار نهائيا عام ١٢٣٦ م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩ م كما تذكر دائرة المعارف الاسلامية (٤/ ٩٩) ٠

ومن نتائج هذه الرحلات التى قام بها الرحالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين للابرة المغناطيسية ، وقد أخذها الغرب عن المسلمين فى الحرب الصليبية الثانية ٠

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية فى تأريخ هذه البلاد وجغرافيتها القديمة التى لم يكتب عنها أحد قبل الرحالة المسلمين ، ولا كتب عنها بعدهم أحد من الأوربيين الا بعد أجيال طوال(٤) ٠

---

(٤) راجع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، الرحالة العرب لنقولا ايادة ، والرحالة المسلمون لزكى محمد حسن ، وأدب الرحلات لشوقى ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنون الأدب العربى ، تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ، وتاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وحديث السندباد القديم لحسين فوزى ، والجغرافيا والرحلات عند العرب لنفولا زيادة ، ودائرة المعارف الاسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى أغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربي بدمشق ٠

الفصـل الثـانى

جهـود أبى دلـف فى ميدان الرحـلات

١ ـ يحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعـد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهـر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصـافه للبلاد التى رحـل اليها وطاف بها ٠٠ وقـد حفظ لنـا ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » ، وياقـوت فى « عجـائب المخـلوقات » ، و « آثـار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ، والأسفار التى قام بهـا رحالتنا العالمى المسلم ابو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى انحاء كثيرة من العالم ، المعروف انذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين النـاس فى عصر أبى دلف وبعـد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجـدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعـد وفاته مجـدا تليدا خالدا فيما كتبـه عنـه أعـلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعـــارف من عجائب الكشـوف الجغرافيـــة ٠

يصفه ابن النـديم(١) بالجـوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، واخبر بعجائبهـا(٣) ٠

---

(١) ٣٤٦/١ الفهرســت ٠

(٢) ٢٦٧/٢ آثار البـلاد ٠

(٣) ٩٧ عجـائب المخـلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بيهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : اخبر بهذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سياحة رآها كلها(٤) .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع ، وان كان ياقوت الحموى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٥) ، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم .

ولقد كان ابن دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية .

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهو القرن الرابع الهجرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجوب البلاد ، وأن يسير فى الممالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحده حد ، ولا يغله قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل .

٢ - وقد الف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلته عبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م . وقد قام المستشرق الألمانى رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن ابا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها .

---

(٤) ٥٨٩ المرجع السابق .

(٥) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت .

وفى مقدمة هذه الرسالة يقول ابو دلف(٦) :

« انى لما رايتكما يا سيدى ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتاليف ، أحببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » .

والظاهر — كما أرجح — انه يخاطب أحد الملوك السامانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة الى هذا ، وأخرى الى ذاك وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة .

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التى نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج .

ودرسها رين ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبى دلف الى الصين .

وكذلك فعل بارتولد ، وميذروسكى (١٩٦٧) الذى قال عنها : ان فى الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرحلاته — كما يقول ميذروسكى — خلط وتعقيد شديدان ، وان كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك

---

(٦) ٨/٥ ٤٠ و ٤٠٩ معجم البلدان .

عن الصين والهند . ويشكك أخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات ابى دلف .

ويرد عليه كراتشوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٧) مؤكدا ان رحلة ابى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابه « الفهرست » عن ابى دلف(٨) . بل ان الرجل لم يترك ادنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣) .

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بهـا وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات ابى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصفه لمشاهد عامة .

وفى هذه الرحلة يذكر ابو دلف الأوانى الصينية وانها كانت مفضلة فى الأسواق ، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى ملبار وايران .

٣ ـ وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار الى ذلك الثعالبى فى « اليتيمة » ، اماكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل أبى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣ م) وألف أبو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر ارمينية واذربيجان وايران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يا من انا عبد كما ، ادام الله لكما العز والتأييد ،

---

(٧) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٨) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا .

والقـدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخـــارى الى الصـــين ، ورجـوعى منها على الهند ، وذكرت بعض اغاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رســالة ثانية ، تجمع عامة ما شـاهدته وتعيـط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولــو العـزة والطمانينـــة ، ويثقف به رأى من عجـــز عـن سياحة الأرض »(٩) .

واللذان يوجـه هنا أبو دلف اليهما هـذه الرسالة همــا اللذان وجــه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبـدو من هـذه المقـدمة الموجـزة الصـــغيرة .

ولهـذه الرسالة الثانية فى وصـف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعـد قليل .

وتبدأ وقائع هـذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشمز » فى جنوبى أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة فى خراســان وايران والقوقاز وأرمينية ، . ومن هنـــا كانت الرســـالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهـذه البلاد ، وهى الى جانب هـذا نحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنـوادر الغريبة ، وبعضها ممـا يحير العقول(١٠) .

وتتميز هـذه الرسالة بتركيز شـديد ، ودقـة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عـداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسـيا الوسـطى . وتحتـوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكـو ، وبالمعـادن المفيدة

---

(٩) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب ـ مطبعـــة مخيمر وقـد وردت كلمة ثانية ، فى الرســالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمـــة « شافية » ، وهـو خطأ .

(١٠) ص ٣ مقـدمة الرسـالة الثانية .

فى ارمينية ، وابو دلف احد الرحـــالة الأوائل الذين تحـدثوا عـــن استخراج النفط فى باكو ، وما أورع ما كتبه عن معـدنيات وطواحـين تفليس(١١) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجـــد فيها المعــادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين ·

ولقـــد حقق مينورسكى هـــذه الرســـالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراســـة ·

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م ·

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦م·

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينـــة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رســائل :

١ ــ رســالة أبى دلف ·

٢ ــ رســالة ابن فضــلان ·

٣ ــ رســالة فى أخبــار البلــدان لابن الفقيه ·

٤ ــ رســالة أخــرى ·

واصبح لهــذه المخطــوطة أهميــة كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القــديم ·

ورســالة ابى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقــد ذكرتا على انهما كتــاب واحــد ·

ويبـدو أن هــذا الكتاب كان قــديما يسمى عجائب البلــدان كما نقلنا عن القزوينى وياقــوت ، وذكرها بهــذا الاسم كذلك بروكلمان ·

---

(١١) ص ٢٢ مقــدمة الرســالة الثانية ·

٤ - وابو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول الى دخائلها .

ومن اهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن فى وادى ساركزتز فى الاتحاد السوفيتى .. ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه(١٢) .

ويذكر أبو دلف انه سار فى مفازة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث ، عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من اعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقد نالت رسالتاه اعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ،

---

(١٢) الرسالة الثانية ص ٨٧ .

والجيولوجى الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء ٠

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ٠

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأوسط أرمينية وأذربيجان »(١٣) ٠

وقد كتب الأستاذ يحيى ساعاتى مقالا فى مجلة المنهل السعودية آسيا الوسطى جاء فيه ما يلى :

للعرب فى آسية الوسطى تاريخ طويل ، يبدأ بسنة ٤٦ هجرية عندما وصل الى مشارف تلك المنطقة الربيع بن الحارث ، ثم كانت حملة عبيد الله بن زياد سنة ٥٠ للهجرة الذى افتتح بعض مدنها ومن بينها مدينة بيكند ، جاء بعد ذلك سعيد بن عثمان بن عفان على رأس حملة توسعت فى فتوحاتها ، واخيرا كانت حملة قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هجرية التى توغلت فى المنطقة حتى بلغت حدود الصين ، ونزل الجند العرب فى مدن آسية الوسطى مثل بخارى وسمرقند وفرغانة٠ وكان للعرب فى مدينة بخارى أحياء خاصة بهم « فمن حيث تدخل من باب العطارين الى باب نون لربيعة ومضر ، والبقى لأهل اليمن ٠٠ فاذا عبرت باب بنى سعد فهناك باب بنى أسد »(١٤) ٠ ومع الزمن توالت هجرات العرب الى آسية الوسطى كما أنها كانت ملجأ للفارين ٠ ولذوى المطامع السياسية منهم ٠٠ وقد اندمج معظم أولئك العرب فى أهل البلاد الأصليين ولكنهم ظلوا يحتفظون بانسابهم ، وظل أهالى تلك المناطق يكنون لهم احتراما وتقديرا ٠ وكان العرب الذين ينتسبون الى بعض الصحابة ، وخاصة الى أبى بكر وعمر وعلى من غير فاطمة

---

(١٣) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ٠

(١٤) النرشخى ٨٠ و ٨٢ ٠

يطلق عليهم لقب « خواجـــه »(١٥) اما الذين ينتسبون الى الحسين بن على فكان يطلق عليهم « خواجكان جويبارى »(١٦) اى الاشراف .

وقـد حفـظ لنـــا التـاريخ أسـماء بعض مشـاهير عرب آسـية الوسطى ، والذين قامـــوا بدور بارز فى احـداث المنطقـــة .. منهم « الخـواجة احمد بن ابراهيم اليسوى » المتوفى سنة ٥٦٢ هجـــرية ، وهـو من احفاد محمد ابن على بن ابى طالب(١٧) ويعـد من رواد الأدب التركى ومن اشهر المتصـوفة الأتراك ، وهـو من الذين نشروا الاسـلام بين بدو الأتراك فى سهوب تركستان ، ويعـد ديوان « حكمت المنسوب اليه من أكثر الكتب تداولا بين ابناء المنطقة وقـد ظـل البدو فى سهوب آسيا الوسطى يعظمون « اليسون » ومثلهم الأزبك والقرغيز(١٨) .

ومنهم احمد بن العباس بن الحسن بن عياض ، وهـو من نسـل سـعد بن عبـادة الأنصارى الخزرجى . ويعـد من كبار فقهـاء الحنفية، وكان يبطن سمرقند ، وقـد استشهد فى معركة مـع كفـــار الترك فى شمال تركستان(١٩) .

ومنهم ايضا ناصر الدين عبيد الله بن محمود بن شـــهاب الدين الشاشى السمرقندى المعروف بـ « خواجـه احرار » وهـو احـد رؤساء الطريقة النقشبندية ، وقـام بدور كبير فى الحياة السياسية على عهـد التيموريين ، وهـو من احفاد عمر بن الخطاب(٢٠) .

وقـد اندمج أبناء الذين سـبق ذكــرهم وامثالهم من العرب فى الأتراك أو الفرس وهم يعـد هناك ما يربطهم بالعرب غير وثائق انسابهم .

---

(١٥) دائرة المعـارف الاسلامية ٤٦٨/٨ .
(١٦) هامش تاريخ بخارى للنرشـخى .
(١٧) لســترنج ٥٢٩ .
(١٨) فامبرى ، ٢٩٨ .
(١٩) اللكنـــوى ، ١٨ .
(٢٠) المصـدر السـابق ، ١٢٠ .

وفى العصر الحديث كانت مفاجأة لكثير من الباحثين عندما توصل بعض المستشرقين الى وجود بقايا من العرب يقيمون حول بخارى وفرغانة ، وقشقاريا يكلمون بلهجات عربية تمت بصلة قربى الى لهجة العراق ، وشبه الجزيرة العربية ، وقد قدر « ارمنيوس فاجدى » عددهم بـ ٦٠ الف عربى(٢١) وفى الاحصائيات السوفياتية الرسمية لعام ١٩٢٦ كان عددهم ٢٨ر٩٨٧ ، وفى احصائيات عام ١٩٣٩ كان عددهم ٢١ر٧٩٢(٢٢) ، وفى الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٥٩ الميلادية انخفض عددهم الى ٩٠٠ (٢٣) ، وجعهم أحمد طعلت ٢٠ الف عربى يعيشون فى ازبكستان(٢٤) .

وقد اختلف الباحثون فى تحديد التاريخ الذى جاء فيه هؤلاء العرب الى آسية الوسطى فذهب بعضهم الى أنهم جاءوا مع تيمور لنك ، وقال آخرون : أنهم من بقايا الفاتحين العرب الذين جاءوا مع قتيبة ابن مسلم الباهلى . ويذكر نجدة صفوة : « ان المعلومات التى استقيت نتيجة التحقيقات مع سكان المنطقة تحمل على الظن بان القبائل العربية الموجودة فى آسية الوسطى قد انتقلت اليها من افغانستان فى موجات متعددة قبل فترة تتراوح بين مائتين وثلاثمائة سنة(٢٥)

وقد اقام العرب فى بداية الأمر حول بخارى ثم تفرقوا منها فنزلوا حول سمرقند ، وفرغانة وقاشاوريا ، وهم يقطنون اليوم فى قرى منها « عرب ، وعربخانة ، وغربهيار ، وغرب قشلاق ، وعرب مزار »(٢٦) .

ولعرب آسية الوسطى لهجة عربية خاصة بهم تختلف عن اللهجات العربية فى تركيب الجمل ، وفى دخول كلمات أعجمية كثيرة فيها ، من

---

(٢١) صفوة ، العرب فى الاتحاد السوفييتى ، العربى ، ١٢٤ .

(٢٢) الفكر العربى ع ٨ .

(٢٣) بيهم ، العرب فى آسيا الوسطى ، مجلة المعرفة ، ٥٥ .

(٢٤) المسلمون فى روسيا ، ٨١ .

(٢٥) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ .

(٢٦) المصدر السابق .

نماذجها : « كان ما كان ، قد حكيما كان · وقد ولد كان عنده(٢٧) ·

ويذكر الباحثون ان لهجة عرب بخارى تختلف كلية عن لهجة قاشقاوريا بحيث لا يستطيع العربى الذى يقيم حول بخارى التخاطب مع العربى الذى يقيم حول قاشقاوريا والمؤسف فى الأمر أن هذه اللهجات دونت بالحروف اللاتينية ·· وذلك مما يباعد بينها وبين اللهجات العربية ، وبذلك تصبح لغة مستقلة تنتمى باصلها الى العربية مثلها فى ذلك مثل اللغة او-الطية المتفرعة عن العربية ·

* * *

وقد اهتم المستشرقون بهؤلاء العرب ويظهر هذا الاهتمام فى الدراسات العديدة التى وضعوها والتى منها :

- العرب فى الاتحاد السوفياتى لتسرتلى

- اللهجة العربية فى الشرق السوفيتى لبوشمانوف ·

- الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربى فى آسية الوسطى لبيليايف ·

- تاريخ عرب آسية الوسطى لفولين(٢٨) ·

- لهجات العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ·

- العرب فى آسية الوسطى لفينيكوف ·

- عرب آسية الوسطى لفينيكوف ·

- المرأة وحفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسية الوسطى لفينيكوف ·

---

(٢٧) الغول ، العربى ، ٩ ·

(٢٨) العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ·

- تقاليد عرب بخــارى لفينيكوف ٠

- نماذج من تقاليد عرب بخــارى لفينيكوف ٠

- نقليات عرب آســية الوسطى لفينيكوف(٢٩) ٠

- الثقافة العربية فى آســية الوسطى لساله

- مواد لدراسة اللهجات العربية فى آسية الوسطى لتسرتلى ٠

- وصف لغــة عرب آســية الوسطى لتسرتلى ٠

- اللهجات العربية وقواعــدها فى اواسط آسـية مع امثلة عليها لتسرتلى ، وهــو يتكون من اربعة مجلــدات ٠

الأول : نصوص فى لغــة عرب بخارى وترجمتها ٠

الثانى : نصوص فى لغــة كشغدار وترجمتها ٠

الثالث : قامــوس للمجلــدين ٠

الرابع : البحث فى لغــة عرب آســية الوسطى(٣٠) ٠

والمؤسف أن جميع هــذه الدراسات كتبت بلغـــات اجنبية ، ولم يترجم منها اى شىء الى العربية ٠

أما الدراســات التى كتبهــا الباحثــون العرب فهى قليلة من بينها المقــالات التاليــة :

- عرب عن العرب منقطعون لمحمود الغــول نشره بمجلة العــربى ســنة ١٩٥٩ م ٠

---

(٢٩) عفيـــفى ، ٩٦٤/٣ ٠

(٣٠) المصــدر الســابق ٩٦٥/٣ ، ٩٦٦ ٠

- العرب فى آسية الوسطى لمحمد جميل بيهم نشره بمجلة المعرفة سنة ١٩٦٦ م ٠

- العرب فى الاتحاد السوفيتى لنجدة فتحى صفوة نشر بمجلة العربى سنة ١٩٥٩ م ٠

كما ترجمت محاضرة تسرتلى التى القاها فى الندوة اللبنانية ببيروت سنة ١٩٥٦ م ونشرت بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٦ م ٠

مراجع هـذا الفصـل

ـ بيهم ، محمـد جميل :
العرب فى آسيا الوسطى · المعرفة ع ٥٥ ، س ٥ ، ١٩٦٦ م ·

ـ دائرة المعـارف الاسلامية ·

ـ طلعـت ، أحمـد :
المسلمون فى روسية · بيروت ، النشر للجامعـة ، ١٩٥٨ م ·

ـ صـفوة ، نجـده فتحى :
العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ع ١٢٤ ، ١٩٦٩ م ·

ـ العقيـقى ، نجيب ·
المستشرقون ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٦٥ م ·

ـ الغـول ، محمـود :
عرب عن العرب منقطعون · العربى ع ٩ ، ١٩٥٩ م ·

ـ فاجـرى ، ارمينيـوس :
تاريخ بخارى تعريب أحمد محمود السأداتى · القاهرة ، المؤسسة المصرية ، ١٩٦٥ م ·

ـ لسـترنج ، كـى :
بلدان الخلافة الشرقية تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عـواد ، بغـداد ، المجمع العلمى ١٩٥٤ م ·

ـ اللكنـوى ، عبـد الحى :
الفوائد البهية فى تراجم الحنفية مع التعليقات السنية · دهلى ، ندوة المعـارف ·

ـ المفـكر العـربى · ع ٨ ، س ١ ، ١٩٦٩ م ·

ـ النرشـخى ، أبو بكر محمـد بن جعفر :

تاريخ بخارى تعريب أمين بدوى ، ونصر الله الطرازى · القاهرة ، دار المعـارف ١٩٦٥ م ·

الباب الرابع

ابـو دلـف الأديـب

الفصل الأول

أبو دلف كاتبا

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف ، منها رسالتاه فى وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة ·

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية ·

عنه كاتب عميق المعانى ، كثير التجربة ، غظيم الخبرة ، دقيق الأفكار ·

وهو الى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عذب اللفظ ، واضح الصياغة ، وضوح معانيه ، ليس فى اداته تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حوشية ، أو معاظلة ·

أسلوبه اقرب الأساليب الى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح أساليب المعاصرين ، كانه أسلوب صحفى معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغة والبلاغة ·

وقد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان ، وفى ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى والبديع ، والصابى ، وأبو حيان ، ،غيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى ·

أبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمى ، ويبعد عن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشديد فى رسائله ، ومع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها ·

ومقدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما السنى السهل ، ومع ذلك فان سعة ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة

غريبة أو حرف قد جيء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام ٠

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته ، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا ٠

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته ٠

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب اسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر الى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية ، وجعل جانب العلم اغلب عليه ، واظهر على ادبه من جانب الخيال والعاطفة ٠

ومن العسير أن نفترض انه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيًا للساسانى الخالص(١) ٠ وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر اليها مثل البديع الهمذانى فى اكبار واجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، مما سنحيط به فى شىء من التفصيل بعد قليل ٠

---

(١) حب ابى دلف للفن وظرفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعا ، حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة ، والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا اناسا يرتدون ـ من اجل الظرف والفكاهة ـ رداء اشعب فى جشعه وطمعه ، وهم اعز نفسا ، واكرم طبعا ٠ وعلى اية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل او الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه عن ساسانيته لأن ابا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، واذا علمنا أن ابا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائزهم ، وكانت له الف حرفة ـ كما يقولون ـ ادركنا انه لم يكن ساسانى التكسب ، بل ساسانى الفن وحده ٠

الفصل الثانى

أبو دلف .. شاعرا

- ١ -

عاش ابو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى غصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٣٥٩-٤٠٦هـ) ، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـ) والوفاء (٣٦٦ - ٤٠١ هـ) ، والسلامى (٣٩٤ هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالديين ، وابن الحجاج (ت ٣٩١) ، والوأواء الدمشقى (ت ٣٩٠ هـ) ، والصنوبرى (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ، والبستى (٣٣٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسى .

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف ان شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة ابى دلف - أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

- ٢ -

واشهر اغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة ، واهم أغراضه الشعرية على الاطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف الى شاعريته ، ونقف على مدى اصالته ٠

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه ان يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها الى ابى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب ، والقى كل منهم قصيدة(١) ٠٠ وقام شاعرنا أبو دلف فانشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد ، ضمنها احر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا الى أبى دلف ينشد(٢) :

دهر على ابنائه وثاب
يا لك دهرا كله عقاب
اصبح لا يردعه العتاب
واها لشاء ما له ايـاب
لكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الأنساب
قد كملت فى طبعه الآداب
كانما غرته شهاب
كانما لبـاته محراب
لا خبر منك ولا كتاب
تناويتك للردى انياب

(١) ٣ : ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر ٠
(٢) ٣ : ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع ٠

تجـزع مـن امثـالها الأحبـاب
وكنت لـو طالت بك الأوصاب
يخـف فـى مصرعـك المصاب
وانـت فـرد مـا لـه اتـراب
قـل لأبى عيسى : وما الاسهاب
بذافـع : تـم لـك الثـواب
فاسكن فهـذا الصاحب الوهـاب
فى جـوده وفضـله منـاب

٢ _ ويقـول ابو دلف أيضا يصف ترفـه وشجاعته(٣) :

انى امـرؤ كسروى الفعـال
اضيف الجبـال واشتو العراق

والبـس للحـرب اثوابهـا
واعتنـق الدارعـين اعتناقا

يقول ابن الفقيه : اختـار ابو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العـراق وذبابة وسـخونة مـائه وهـوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها ٠

٣ _ ولـما طوت الأحـداث حياة ابى دلف المترفة ، فاحالته فقيرا بعـد غنى ، قال(٤) :

الم ترنى حـين حـال الزمـان
اصيف العراق واشـتو الجبالا

---

(٣) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه _ طبعة ابريل ١٣٠٢ هـ ٠
(٤) ٢٤١ المرجـع السـابق ٠

سموم المصيف وبرد الشتاء
حنانيك حالا أزالتك حالا

فصبرا على حدث النائبات
فابى الحوادث الا انتقالا

٤ ـ ووقف أبو دلف امام بعض آثار تدمر فى الشام ، فقال :

ما صورتان بتدمر قد راعتا
اهل الحجى وجماعة العشاق

غبرا على طول الزمان ومره
لم يسأما من الفة وعناق

فليرمين الدهر من نكباته
شخصيهما منه بسهم فراق

وليبلينهما الزمان بكره
وتعاقب الاظلام والاشراق

كى يعلم العلماء أن لا دائم
غير الاله الواحد الخلاق

٥ ـ ولأبى دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة(٥) :

هى المقادير تجرى فى ازمتها
فاصبر فليس لها صبر على حال

---

(٥) كتاب التمثيل والمحاسرة للثعالبى ، ومن الطريف ان هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء، منهم : الشافعى ، والواثق العباسى ، واسحاق الموصلى .

دع المقــادير تجرى فى أعنتهــا
ولا تبيتن الا خـــالى البـــال

ما بين طرفـــة عـين وانتبـاهتها
يغـير الله من حـــال الى حـال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شـعره مفقود الا النماذج القليلة التى رواها الثعـالبى ٠

٦ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقـل اليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيـــه شعرا ٠ وفى يوم حافـل اجتمع شـــعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف(٦) ، فانشد كل منهم قصـيدة طـويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر ، وقـد ذكر الثعالبى هـذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف ٠ ومطلع قصـيدة أبى دلف هـو :

رأينـــــا طلعـــــة الـــــدار شـــــموسا مـــع أقمـــار
ولـــى مســـــألة بعـــــد فعـــاجلنى باخبــــــار
بنيت الـــدار فى دنيـــــــا ك ، أم دنيـــاك فى الـدار ؟

٧ ـ ولننتقل الى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة ٠٠ وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » ٠

ـ ٣ ـ

الشعر الساسانى لـه بذور قـديمة فى شـعر الصعـاليك ، وفى مزاح أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ فى بعض كتاباته ٠

---

(٦) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمـة ٠

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفا ، وما اقسى ما قاله ابو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة »(٧) : القوت لم يكن اليه سبيل الا باخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على الوان والوان ، أو ما يقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا فى تصرفه
وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين الحواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون احيانا أن صدقا وان كذبا انهم مجاهدون احيانا أو من ابناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، او غير ذلك ، فاطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون(٨) وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم(٩) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء ، وفى الاحتيال على أخذ المال من اى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : ادب وشعر ساسانى . وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها الا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظا عجيبا ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة(١٠) ، وكان يعجبه من ابى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره ،

---

(٧) ٢ : ١٤٢ الكتاب المذكور .

(٨) ٤٦/١١ و ٤٧ دائرة المعارف الاسلامية .

(٩) ٧ احسن القاسيم للمقدسى .

(١٠) ١٧٦/٣ اليتيمة .

وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة ، التى كتبها وقدمها(١١) الى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحوا من مائتى بيت ٠

هذا هو معنى الشعر الساسانى باجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب اليه هذا الشعر ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية(١٢) الفرسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنما ، وجعل يرعاها ، ويعير بانه راعى غنم ، فنسب اليه كل من احترف الكدية ٠

وقيل(١٣) : أن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان الى مكان ، فصارت نسبتهم الى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد ٠

وقيل أن ساسان كان رجلا من عامة الناس ، ماهرا فى الحيلة والاستجداء ، فنسب اليه هؤلاء ٠

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الالم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا ابو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه : أنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو

---

(١١) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » ـ طبعة عام ١٩٤٩ م٠

(١٢) اسرة فارسية حكمت ايران ، اولهم أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) الذى سقطت الامبرطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ٤٧/١١ ـ ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الاسلام لأحمد امين » ٠

(١٣) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع ـ ص ٩٧ ٠

فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام(١٤) ٠

وقد أكثر العكبرى من تصوير بؤسه وحرمانه ، فيقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن
تأوى اليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضا :
عشت فى ذلة وقلة مال
واغتراب فى معشر أنذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى
فغذائى حلاوة الآمال(١٥)

---

(١٤) ١١٧/٣ اليتيمة - ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة ٠

ولقد ذكر الجاحظ - فى « المحاسن والأضداد » وفى « البخلاء » ص ٣٦ - الكدية والمكدين ٠٠ وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ - ٦٢٤) المحاسن للبيهقى) ٠

ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصوص وحيلهم - راجع المقامة الرصافية - كما يذكر الكدية كذلك ، وفى مقامته الساسانية ، التاسعة عشرة ، يدافع عن الكدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدى (٢/١٤٣ الامتاع والمؤنسة) الساسانيين راثيا لحالهم ٠

وفى مقامات الحريرى المقامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية ، وبالزهد فى غيرها من الصناعات ، ولو كانت امارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة ٠

وادوات صناعة الساسانيين كما صورها الحريرى : الفطنة والذكاء والوقاحة، وأن يكون الساسانى أجول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجد والمثابرة ، فلا يسام الطلب ، ولا يمل الداب ، وعليه بالاقدام ولو على الضرغام ، مع تحليه بالبلاغة ، بان يكون أخلب بصوغ اللسان ، وأخدع بسحر البيان الخ ٠

ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طويلة فى ١٤٥ بيتا ٠

(١٥) راجع ٣ : ١١٧ - ١١٩ اليتيمة ٠

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على انى بحمد الله	فى بيت من المجد
باخوانى بنى ساسا	ن اهل الجد والجد
لهم ارض خراسان	فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
قطعنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غمد

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التى حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) - الذى لم يكن يملك فى ظلال البويهيين من الأمر شيئا ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكأن ذلك مما يتندر به الصاحب وعضد الدولة ، وهو على أى حال تندر مر لأنه يشير الى الحقيقة المرة كاملة ، اذ كان الخليفة فى ظل البويهيين لا شان له بشىء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائما فى فقر وحرمان ٠

قصيدة أبى دلف الساسانية(١٦) :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية ، ولها اهمية كبيرة ، لا فى شعر أبى دلف ، ولا فى الشعر الساسانى ، وحدها بخاصة ، بل فى الشعر العباسى عامة ٠

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماما شديدا ، فعنوا مثلا بعدا

---

(١٦) ٢ : ٢٥٤ - ٣٧٢ اليتيمة ٠

جاء فيها من وصف الأوانى الصينية(١٧) ٠

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها فى هذا الباب أثر ادبى آخر الا مقامات البديع ٠

وقد استخدم أبو دلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا ٠ وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب اياها بنجاح ، وقد أعلن أبو دلف انه نفسه من زمرة الساسانيين ٠

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجرى لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجه به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعميـ ـن من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
كامثالى ، وفى الغربـ ـة أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا والوانا من الدهر
على انى من القوم الـ ـبهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الـ ـحمى فى سالف العصر

---

(١٧) « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، د٠ زكى حسن ٠

فنحن الناس كل النا ... س فى البر وفى البحر

اخذنا جزية الخلق ... ارض خيلنا تسرى

الى طنجة ، بل فى كل ... من الصين الى مصر

لنا الدنيا بما فيها ... من الاسلام والكفر

فان ضاق بنا قطر ... نسر عنه الى قطر

ويقول ابو دلف فى القصيدة أيضا :

ومنا شعراء الأر ... ض من اهل البدو والحضر

ومنا سائر الأنصا ... ر والأشراف من فهر

ويستطرد ابو دلف ، فيجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين ال ... مطيع الشائع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان(١٨) ..

ثم يقول ابو دلف :

سقى الله بنى ساسا ... غيثا دائم القطر

الا انى حلبت الدهـ ... ـر من شطر الى شطر

---

(١٨) ٨٦/٦ و ٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

وجبت الأرض حتى صـرت فى التطـواف كالخضـر
وللغـربة فـى الحـر فعـال النـار فـى التـبر
ومـا عيش الفـتى الا كحـال المـد والجـزر
فبعـض منـه للخـير وبعـض منـه للشـر
فـان لمـت على الغربـة مثلى فاسمعن عذرى
أمـالى أسـوة فى غـر بتـى بالسـادة الطهـر
فـان اظفـر بآمـالى شـفيت غـلة الصـدر
وقـد تخفـق فـوقى عـز ة الـوية النصـر
واما تكـن الأخـرى فـلا ابـت مـع السـفر
ولا عـدت منى عـدت بـلا عـز ولا وفـر

هـذه هى أبيـات من القصيدة الساسانية ، التى نظمها أبو دلف، وانشدها الصاحب ، وطارت شـهرتها بين الأدباء وقـد أتيت على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العـويصة .

ولا نقـول عنها الا أنها وثيقـة أدبية كبيرة(١٩) الدلالة فى الشعر العباسى ، وانها من أرفـع نمـاذج الشعر الساسانى وهى حافلة بالبلاغـة والصـور والأخيلة العجيبة .

---

(١٩) بعـد أن كتبت ذلك وجـدت آدم متز « فى الحضارة الاسلامية » ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها : انها وثيقـة اجتماعية فى القرن الرابع .

الفصــل الثــالث

أبو دلف « نموذجا أدبيا رفيعا فى مقامات البديع »

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمــذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقــامة حــدثا ادبيــا جــديدا فى الأدب العــربى .

فلقــد بهر النقاد والرواة أسلوبها ، ونزعــة القصة فيها ، وهــذا الحــوار الذى طالمــا دار بين بطله ابى الفتح الاسكندرية وراويته عيسى ابن هشام ، كما بهرهم هــذا النمــوذج الفنى الرفيــع الذى تمثل فى شخصية الساسانى ابى الفتح البطــل .

وفتن النــاس بمقامات بديع الزمان افتتنا شــديدا .

وليس هنــاك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقــامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضــل فى انشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاســم ابن على البصرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) فى مقــدمة مقاماته ، فقــد جعل ابتداع المقامات راجعــا الى بديع الزمان ، وعلامة همــذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع ابا عــذرتها ، والواضــع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبــود مثلا ، اذ يقــول(١) : ان خطة المقامات من عمــل البديع ، فهو الذى البسها هــذا الطراز ، وعلى طريقه هــذه التى شقها سارت عجلة الأدب الف عام ، وعبثا نحاول العثور على اثر لهــده الخطة عند غير البديع .

---

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمــارون عبــود .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ·

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه(٣) الى ان البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٤) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وان كان لـه فضل فى نشاتها ، وينفى مؤلف كتاب «بديع الزمان رائد القصة القصيرة» وهو مصطفى الشكعة(٥) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ·

ويجعل آخرون البديع محتذيا حذ استاده ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ·

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٦) ، ان البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن اهل الكدية ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبقى جديدا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى اى عمل أدبى أو غير أدبى ·

ويجعل بعض المستشرقين اساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ولا تنهض به الحجة(٧) !

---

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » - مازن مبارك ·

(٣) ١ · ٢٣٥ « زهر الآداب » ·

(٤) « النثر الفنى » لزكى مبارك ·

(٥) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » الشكعة ·

(٦) ٢٠ « المقامة » لشوقى ضيف - طبع دار المعارف ·

(٧) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » عمؤلف ·

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى الا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار(٨) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد انشأها بديع الزمان الهمذانى ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره ٠

- ٢ -

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الاسكندرى ، وهو الذى مثل كل ادوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل احداثها ٠

وشخصية ابى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقا ، فهو بطل الموقف كله فى المقامة ، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد الا الكدية والاحتيال بكل اسلوب من أجل المال أو الطعام ٠ وهو الى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ، يهز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

---

(٨) « تاريخ تطور النثر الفارسى » - محمد تقى بهار ٠

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها الى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتوحات ابى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر ٠ وقد يناقض ذلك ان ابا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(٩) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) ٠٠ ويصح لنا ان نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ٠

ويقودنا ذلك الى التساؤل : اية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية ٠ وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية ٠ ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى ٠

فاذا رجعنا الى ياقوت (١٠) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ٠ الا انى وجدت

---

(٩) راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

اسكندرية دارى لو قر فيها قرارى

(١٠) ٢٣٥/١ معجم البلدان ٠

رحالة عربيا فى القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١١) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغداد والحلة(١٢) ، ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٣) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسكندرية على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

- ٣ -

ونسائل انفسنا : من هو أبو الفتح الاسكندرى اذا ؟

١ - هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٤) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ،وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى ابن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من

---

(١١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان .

(١٢) يعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمه طارق العوسج ، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليا .

(١٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الاداب عام ١٩٤٤ م .

(١٤) ص ١٤٧ الكتاب المذكور .

مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام . ولو ذهبنا الى أن ابا الفتح هو الذى كان استاذنا للبديع لكان ذلك اكثر صلة بالبحث ، واكثر انطباقاً على الموضــــوع .

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على اثر والغالب انهما من ابتكار خيــال البديع نفســه(١٥) .

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا انهم لم يستطيعوا تحديد هــؤلاء الأشخاص المجهــولين ولا الكشــف عن شخصياتهم التاريخيــة .

وانا معهم فى ذلك . ولكنى أخطو خطوة جديدة من اجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية .

ويذهب باحث عراقى(١٦) سبق الاشارة اليه الى أن ابا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبيــة فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٧) حيث ذكرت انه قد يكون فى حياة ابى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من اخلاقه . ولكنى اخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر(١٨) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة ابى الفتح « نجد من اعلامها فى عصر البديع من يشبه ابا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ)

---

(١٥) بديع الزمان ص ٢٣٢ .

(١٦) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى .

(١٧) ص ١٥٧ و ١٥٩ الكتاب المذكور .

(١٨) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ .

وابى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجــوه كابى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كابى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هــذا الرأى أن أشباه أبى الفتــح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هــو أبو دلــف أو الأحنف ٠ وهــذا الرأى لا يأتى لنا بجــديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على اية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين لــه ٠

٣ - ورايى الذى اذهب اليه اليوم هــو أن ابا الفتح انمــا هـــو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البــديع ، وهــو أبو دلــف الخزرجى وحـــده ٠

وهــذا الرأى لا يسبقنى فيــه باحث ، وبه ينفتح الباب امامنا لفهم كثير من حقــائق الأدب فى القرن الرابع ٠٠ ودليلنا عليه هــو ما قالــه الثعالبى فى « يتيمــة الدهــر »(١٩) قال :

انشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتــح الاســكندرى :

ويحـــــك هــــذا الزمـــان زور   فـــلا يغـــرنك الغـــــرور(٢٠)

لا تلتزم جالـــــة ولكـــــــن   در بالليـــالى كمـــا تـــدور

ومن هــذا النص نعرف الحقــائق الآتية :

١ - انشد البديع الثعالبى شــعرا لأبى دلف ٠

٢ - وهــذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتــح هــو أبو دلف نفسه بأقرار البديع ٠

---

(١٩) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـــة ٠

(٢٠) هــذا الشعر فى المقامة القريضية احدى مقامات البديع ٠

٣ - كان البديع راوية لشعر ابى دلف ، ويبدو لى ان البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

واذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف استاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات،وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان ابو دلف اروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن شهرة وتجارب ابى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان .

بل انى أضيف الى ذلك ان البديع الهمذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى ان هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقامة فى الأدب ، العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف .

ملحق بالكتاب :

ينبع موطن أبى دلف

ينبع من اقليم الحجاز ، تطل على البحر الأحمر ويقال لهما : الينبع ، والينبوع ايضا ، وهما تحريف للاسم الأول ٠

وهى الآن امارة تضم مقر الامارة ينبع البحر ، وينبع النخل الزراعية بقراها العديدة ٠

وذكر يافوت عن الشريف ابى سلمة بن عياش الينبعى انه قال : عددت بها مائة وسبعين عينا ٠

ومن اشهر جبال ينبع رضوى (يرتفع عن سطح البحر بنحو ١٨١٤ مترا ، ووادى ينبع مشهور ، وبجواره وادى العيص

وقد وقعت غزوة العشيرة فى اقليم ينبع ، وقد غزا رسول الله بنفسه هذه الغزوة ، وهى فى بطن وادى ينبع ٠ وفى ينبع « عين البركة » و « سويقة » من منازل الطالبيين ٠

وكان الامام على بن ابى طالب يقيم فى ينبع قبل توليه الخلافة ٠ وكان بها معجبا ، ويروى المؤرخون عنه انه نظر الى جبالها فقال : « لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » ٠ ثم استوطن بنوه واحفاده تلك الجهات وانتشروا وكثروا فيها ، وملكواعيون ينبع ومزارعها ٠ وازدهرت ينبع فيما بعد حتى فاقت المدينة المنورة ٠ ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا:«ينبع كبيرة جليلة،حصينة الجدارى،غزيرة الماء، اعمر من يثرب،واكثر نخيلا،حسنة الحصن،حارة السوق»٠وفى القرن السادس الهجرى قامت فيها للحسنيين دولة كان من اشهر رجالها الشريف « قتادة » جد ولاة مكة من الأشراف ٠ وكان قتادة وذووه يسكنون فى « العلقمية » من عيون ينبع المعروفة الآن ٠ وقد استمر الملك فى آل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان واتخذوا من وادى ينبع حصنا لهم ٠ ثم

أصبحت ينبع احدى المحطات الرئيسية التى يمر بها الحجاج القادمون من مصر والشام برا أو بحرا • وكان الحجاج واهل ركب المحمل يستبشرون باقترابهم من « أم القرى » عند وصولهم الى ينبع • فيقيمون فيها ثلاثة أيام أو اربعة يريحون فيها أنفسهم من عناء السفر حيث النخل الكثير والعيون الجارية والينابيع العذبة المتفجرة • وتقام فيها سوق كبيرة يجد فيها الحاج كل ما يلزمه من اصناف الطعام من لحوم وسمن وعسل وتمر وخضار ، ولهذا كان مرور الحجاج بها يعتبر من المواسم المشهودة •

وفى بداية القرن الثانى عشر الهجرى تعرضت منطقة ينبع للحروب والفتن فحلت بها وبأهلها الكوارث والأرزاء معا صرف سكانها عن العناية بالزراعة ، قوام تلك المنطقة • وفى أول العهد السعودى بعد استتباب الأمن وانتشار العدل ، نشطت حركة الزراعية فانتعشت البلاد بصفة عامة • الا ان هذه الحالة لم تدم طويلا ، اذ نضبت فيها عيون كثيرة أدت الى ضعف حركة الزراعة وبالتالى الى هجرة الكثيرين من اهلها الى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة • وقد تنبهت الدولة لهذا الأمر فاعدت لها فى السنوات الأخيرة مشاريع زراعية كفيلة برفع مستواها الزراعى واستقرار سكانها •

اما ينبع البحر فلم يكن لها شأن يذكر عند المؤرخين فى العصور الاسلامية قبل القرن السابع الهجرى ، مع ان بعض المستشرقين يرى أنها كانت معروفة قبل الاسلام ، بل قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وفى صدر الاسلام اتخذ المسلمون الأولون لتجاراتهم الكبيرة من « الجار » ميناء ، عندما كانت لهم علاقات تجارية قوية مع بلاد الحبشة • وقد اكتسب هذا الميناء شهرة كبيرة حتى ان البحر الأحمر كان يعرف ببحر الجار • ويقع الجار فى المكان المعروف الآن باسم « الرايس » الى الجنوب من ميناء ينبع ، بينما يرى بعض الباحثين انه يقع فى مكان ميناء « البريكة » الذى لا يزال يستعمل على نطاق محدود • وفى أواخر القرن السادس الهجرى بدأ أمر الجار يضمحل واخذ ميناء ينبع يقوى ، حينما جعله الأيوبيون الميناء الرئيسى

للمدينة المنورة وأقاموا فيه بعض الانشاءات · وفى عهد الجراكسة ، حكام مصر والشام والحرمين ، ارتفع شأن ميناء ينبع لاستقباله الكثير من السفن التى تحمل الجرايات المقررة من حبوب للمدينة المنورة ، بالاضافة الى لوازم الحرم الشريف وما يحتاج اليه ركب المحمل · وفى آخر عهد الجراكسة عمت الفوضى فى الحجاز مما أدى الى انقطاع سيل الحجاج مدة ، فكان اثر ذلك سيئا على الشقيقتين ينبع النخل وينبع البحر · ثم عاد الميناء الى سابق عهده ابان حكم السلطان « سليمان القانونى » الذى امر بانشاء مخازن للحبوب ، وبتشييد جامع كبير فى البلدة ، وباصلاح الميناء وتوسيعه · ثم تضعضع شأن اقليم ينبع عامة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين بضعف الدولة العثمانية ، ولم تتذوق طعم الازدهار ولم تهنأ بالاستقرار بعد ذلك الا فى العهد السعودى بعد أن استتب الحكم ، فادخل عليها من الاصلاحات والمشاريع ما جعلها بحق مفتاح المدينة المنورة والميناء الثانى على ساحل البحر الأحمر الشرقى بعد ميناء جدة ·

وينتمى معظم سكان منطقة ينبع النخل الى قبيلة جهينة ، والبعض الى قبيلة حرب · اما أكثرية سكان مدينة ينبع البحر فهم من الأسر العربية التى انتقلت من صعيد مصر واستوطنت هذه المدينة · هذا وقد نزحت اليها مؤخرا بعض الأسر من الأشراف ونشطت ميناؤه · ويعمل معظم اهالى ينبع النخل فى الزراعة وتربية النحل والمواشى · اما سكان مدينة ينبع البحر فيشتغلون بالتجارة وصيد الأسماك وصناعة القوارب الشراعية وفى الوظائف الحكومية المختلفة · ويضم وادى ينبع اربعا وعشرين قرية صغيرة متقاربة ، تقوم كل منها على عين ، وهى : الجابرية ، التى تشتهر بسوق يوم الجمعة ، وهى من أقوى العيون فى المنطقة ، والسكوبية ، والمزرعة ، وعين عجلان ، وعين على الحربية ، وعين على الجهنية ، والفجة ، وخيف فاضل ، والسويق ، المشهورة بسوق يوم الاثنين النشطة ، اذ يجلب اليها اهل البادية من المناطق المجاورة المواشى والسمن والعسل والفحم الخشبى والخضار والفواكه ، والمعروف أن السوق كانت حتى وقت قريب مقر الامارة فى ينبع النخل ثم أصبحت تابعة لامارة ينبع البحر ···

أبو دلف ·· والبديع

لا ريب أن أبا دلف هذا الشيخ المجرب الحكيم ، المتعدد جوانب الشخصية ·· كان ينظر الى بديع الزمان الشاب المتوقد ذكاء ونبوغا وعبقرية ·· نظرة الأستاذ الى تلميذه ·

وكان البديع يضع أبا دلف موضع الأستاذية ، ويحله من نفسه منزلة رفيعة ، ويعجب لروحه الفكهة وثقافته الواسعة ، وظرفه الذى لا حد له ، والى حلو مجلسه ، وروائع نوادره وطرائفه ، بكل تقدير وحب واعجاب··· الشعور نفسه متبادل بين الأستاذ والتلميذ، بين جيل وجيل ، بين عبقرية وعبقرية ·

وكان البديع ينصت الانصات العميق لرحلات أبى دلف وصور مشاهده فى هذه الرحلات ، وكان كل ذلك يقع فى نفسه موقع الاعجاب والاستغراب معا ·

ومن ثم فقد اتخذ البديع أستاذه أبا دلف نموذجا أدبيا رفيعا للساسانى العجيب لظريف العبقرى الأديب ، وسماه فى مقاماته بأبى الفتح الاسكندرى ، ورسم له صورة رائعة من الذكاء والمعرفة والبلاغة والقدرة على امتلاك عقول الجماهير واذواقهم معا ·

وجعل البديع أبا الفتح بطلا أو قل (مهرجا) كبيرا ، لا تفوته فرصة ، ولا تند عنه شاردة ، ولا تغيب عن ذهنه اللماح خاطرة ، وجعله محتالا ظريفا ، وقصيصا بارعا ، وبليغا يملك ألباب الناس وعقولهم وأذواقهم جميعا ·

وبلغ البديع فى تصويره لأبى دلف مبلغ الاتقان والجودة وللروعة معا ·

وكان أبو الفتح ـ كما صوره البديع ـ خبيرا باقتناص الأموال ،

واستخراج الدراهم والدنانير ، من جيوب الأغنياء والاثرياء ، بل ومن الفقراء ايضا ، ببلاغته وبيانه الساحر الغريب ٠

ورسم ابا دلف ، او قل ابا الفتح ، فى صورة لا يستطيع احد أن يرسمها ، أو ان يصور بطله فى هذا النموذج البديع المذهل ٠

وكان اعجاب الناس وحفاوتهم بهذا النموذج البطل فريدا ، فقرأوا مقامات البديع ، وهم شبه مسحورين ، ورددوها وحفظوها ، وهم جد ميهورين ٠

ومن أين لبليغ أن يكتب مثل هذه الروائع الفريدة ، والشوارد الجديدة ، ومن اين لقلم أن يخرج فرائده فى صورة دونها السحر ، وان كانت فى ثوب النثر والشعر ؟

ولا يرجع هذا العجب العجاب الى ظرف البديع وحده ، بل الى جلال النموذج وعظمته ايضا ، فابو دلف هذا النموذج العبقرى للأديب المحترف الساسانى ، هو هو فى عظمة الصورة المرسومة ذاتها ٠٠ عبقرية الصورة تماثلها عبقرية المصور (بكسر الواو) وعبقرية المصور (بفتح الواو) معا ٠

ومن ثم خلد هذا النموذج وتتوسى اصله ، وبقى النموذج مجهول الهوية ، يتخيل المطالعون له انه رسم أسطورى لشخص اسطورى٠

ونحن نعجب لمعاصرى ابى دلف والبديع ، وللأجيال التى جاءت من بعدهم : كيف غابت عنهم حقيقة هذا النموذج ، وتناسته ثم نسيته تماما خلال الف عام ٠

والثعالبى فى ذكائه أعطى لنا المفتاح الذى فتحنا به باب هذا الكنز المجهول ، فرأيناه ورآه الناس عجبا ٠

وليس فى وسعنا الا أن نحمد الله أن اتضحت الصورة ، وان كشفنا

عن أصل هذه الصورة الوحيدة الفريدة ، واذ كان يفرح الانسان بكنز مدفون يهتدى اليه فى باطن الأرض ، فقد كان فرحى كبيرا حقا بأن اهتديت الى الكشف عن أمور عجيبة كانت محجبة فى ضمير الغيب ٠

لقد كشفت عن شخصية أبى الفتح ، وقلت : انه هو هو ابو دلف الخزرجى الينبعى ، مسعر بن المهلهل ٠

وكشفت فى الوقت نفسه عن شخصية ابى دلف وحياته بالتفصيل ، بعد أن غابت صورته ، وغام شبحه فى ظلال النسيان ٠

وكشفت عن أبى دلف وانه هو مسعر بن المهلهل ، هذا الرحالة العجيب المتعدد الثقافات والجوانب ٠

قل عنه : أنه اديب ٠

أو قل عنه : انه شاعر ٠

او قل عنه : انه مؤلف ٠

او قل عنه : انه رحالة جوالة فى الآفاق ٠

أو قل عنه : طبيب حاذق بارع ٠

او قل عنه : انه جيولوجى متميز ٠

أو قل عنه : انه سفير وسياسى رفيع المنزلة فى عصره ٠

او قل عنه : انه نديم الملوك والأمراء والوزراء ٠

قل عنه : ذلك أو قل عنه : اكثر من ذلك ، فهو كل ذلك جميعا أو يزيد ٠

أبو دلف الحكيم وأبو دلف الأديب وابو دلف الظريف ، وأبو دلف

السياسى ، صــورة لعبقرية كبيرة عاشت فى القرن الرابع الهجرى ٠

وانا اقــول : ان القـــرن الرابع الهجـــرى هـــــو عصر المتنبى وأبى دلــف ٠

انهما صــورتان للعصر ، ولم ينجب العصر أرفع منهما قدرا فى المنزلة الأدبيــة ٠

هــو عصر المتنبى وأبى دلــف حقــا ٠

انى لأحيى هــذين العلمين الكبيرين الخالــدين ٠٠

ومن حظى أن أخرج هــذا الكتــاب عن ابى دلف ، وأن يصــدر لى ولصــديقى الأديب الكبير د٠ عبــد العــزيز شرف شرح جــديد لديوان المتنبى ٠

وبالله التوفيـــق ٠٠

خاتمـــة الكتـــاب

وبعـد ، فهـذا أبو دلف الخزرجى بطل مقامات البديع ، رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القـرن الرابـع •

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره •

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملـوك ينادمهم ، وينـادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة •

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من اعلام الشعر الساسانى الذى كان لـه طرافته وروعته فى عصره •

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الـذوق وجمال الفكاهة ، مما حببه الى الملـوك وقربه الى الوزراء •

وشخصية فـذة اهتزت دوائر المشرق بدراسـة افكارها ونتـائج الرحلات التى قام بهـا فى شتى انحـاء آسيا •

ولقـد كان بديع الزمان الهمـذانى وثيق الصلة أبى دلف ، وواقفا على اخبـاره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمـة ما يدل على ذلك(١) • وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستطرافه،كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهـو علم فيها •• كان ذلك كله موضـع تأمل البديع وتعجبه ، لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخـذ من ابى دلف وحيـاته وشخصيته بطـلا للمقامات التى أبدعها ، ورمز اليـه بأسم أبى الفتح الاسكندرى •

---

(١) اليتيمـة ٣ : ٣٢٣ •

وتقـول تاكيدا لذلك : ان جميع ما صـور به البديع بطـل مقـامـاته ابا الفتـح الاسكندرى ينطبق على ابى دلف تمام الانطباق .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهـو جوالة فى الآفاق ، وهـو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعـود همته مـع حسن آلته ، وهو كهل قـد غير اخيرا فى وجهه الفقر ، وهو كما يقـول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اسـيح كانى المسيح ، فجلت خراسـان الى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان ، والى عمان ، الى السند والهند ، والنـوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطـائف ، فجمعت من النـوادر والأخبار والأسحار والفوائد .. ما قصر عنه فتيا الشعبى » ... وهـذا هـو ابو الفتح فى أدق صورة ، وفى أوضح مثالاته ..

والله ولى التوفيـق ..

المؤلـف

المصـــادر والمراجـــع

رجعنا فى هـذا البحث الى كثير من المصادر ، التى نكتفى هنـا بذكر بعضها :

١ ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ ٤ أجـزاء .

٢ ـ معجم البلـدان لياقوت طبعة مصر ١٣٢٣ هـ .

٣ ـ مروج الذهـــب للمسعودى ـ بتحقيـــق محمـــد محيى الدين عبـد الحميـد .

٤ ـ أخبـار الزمان للمسعودى ـ طبعة بيروت .

٥ ـ التنبيه والاشراف للمسعودى .

٦ ـ مقـامات بديع الزمان .

٧ ـ مقـامات الحـريرى .

٨ ـ عجائب المخلوقات للقزوينى بتحقيق الصيرفى والأبيارى .

٩ ـ آثار البـلاد للقزوينى ـ دار صـادر ١٩٦٩ .

١٠ ـ الجماهر فى معرفة الجواهر ـ والآثار الباقية : للبيرونى .

١١ ـ تحقيق ما للهند من مقـولة للبيرونى .

١٢ ـ مختصر كتـاب البلـدان لابن الفقيه .

١٣ ـ المسالك والممـالك للاصطخرى ـ طبع القاهرة ١٩٩١ م .

١٤ - معجم الأدباء لياقوت - نشر فريد رفاعى .

١٥ - ديوان الصاحب .

١٦ - رسائل الصاحب .

١٧ - رسائل البديع .

١٨ - رسائل الصابى .

١٩ - البخلاء للجاحظ - بتحقيق الجارم .

٢٠ - الحيوان للجاحظ - بتحقيق عبد السلام هارون .

٢١ - البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق هارون .

٢٢ - المحاسن والأضداد للجاحظ .

٢٣ - المحاسن والمساوىء للبيهقى .

٢٤ - الخراج لقدامة .

٢٥ - احسن التقاسيم للمقدسى .

٢٦ - العقد الفريد لابن عبد ربه - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين .

٢٧ - الأغانى لأبى الفرج - طبع دار الكتب .

٢٨ - عيون الأخبار لابن قتيبة - طبعة دار الكتب .

٢٩ - الأخبار الطوال للدينورى - مصر ١٣٣٠ هـ .

٣٠ - الأمالى للقالى - طبعة دار الكتب المصرية .

٣١ - الامتاع والمؤانسة للتوحيدى - طبعة مكتبة الحياة بيروت .

٣٢ - رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون .

٣٣ - تاريخ الاسلام للذهبى « طبعة مصر » ستة أجزاء .

٣٤ - تاريخ بغداد للبغدادى - ١٤ جزءا - طبعة القدسى .

٣٥ - تاريخ جرجان - للسهمى - حيدر آباد ١٩٥٠ .

٣٦ - تاريخ اصبهان لأبى نعيم - ليدن ١٩٣١ .

٣٧ - تاريخ الطبرى - طبع دار المعارف بمصر .

٣٨ - الكامل للمبرد - طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .

٣٩ - فحول الشعراء للأصمعى بتحقيق المؤلف .

٤٠ - الصناعتين للعسكرى - طبعة عيسى الحلبى .

٤١ - معجم ما استعجم للبكرى - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٤١ .

٤٢ - تجارب الأمم لمسكويه .

٤٣ - البحوث الأدبية للمؤلف - طبع دار الكتاب اللبنانى .

٤٤ - الفهرست لابن النديم - طبعة مصر .

٤٥ - المكتبة الجغرافية - طبعة ليدن - ٨ مجلدات .

٤٦ - مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - جزءان .

٤٧ - كشف الظنون لحاجى خليفة - طبعة المعارف التركية جزءان .

٤٨ - نهاية الأرب للنويرى - طبع دار الكتب المصرية .

٤٩ - صبح الأعشى للقلقشندى - طبع دار الكتب المصرية .

٥٠ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ـ دار الكتب ٠

٥١ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الانجليزية الجديدة فى الحديث عن أبى دلف ـ والترجمة العربية ـ طبع مصر ـ فى مواضع كثيرة تتصل بالبحث ٠

٥٢ ـ مقدمة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية ٠

٥٣ ـ الجغرافيون العرب لصبرى محمد حسن ـ طبع النجف ٠

٥٤ ـ الجغرافيا والرحلات عند العرب ـ نقولا زيادة ٠

٥٥ ـ اعلام التاريخ والجغرافيا ـ المنجد ـ طبع بيروت ٠

٥٦ ـ شمس العرب تسطع على الغرب لهونكة ـ طبع بيروت ٠

٥٧ ـ العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ حورانى ٠

٥٨ ـ حديث السندباد القديم ـ حسين فوزى ٠

٥٩ ـ ابن فارس للأستاذ هلال ناجى ـ بغداد ٠

٦٠ ـ المجلة الجغرافية ـ مصر ٠

٦١ ـ تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ٠

٦٢ ـ الرواد نشر المقتطف ٠

٦٣ ـ الرحالة العرب ـ نقولا زيادة ٠

٦٤ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ زكى محمد حسن ٠

٦٥ ـ الرحلات ـ دار المعارف ـ بقلم د٠ شوقى ضيف ٠

٦٦ ـ الجغرافيا عند العرب : يسن الحموى ٠

٦٧ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشوفسكى - نشر الجامعة العربية .

٦٨ - جهود المسلمين فى الجغرافيا - نفيس أحمد - القاهرة .

٦٩ - الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - المؤلف .

٧٠ - ابن المعتز - المؤلف ١٠٥٨ القاهرة .

٧١ - أبو عثمان الجاحظ - المؤلف ١٩٦٣ القاهرة .

٧٢ - مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته مازن المبارك .

٧٣ - بلاد ينبع للعلامة حمد الجاسر - دار اليمامة بالرياض .

٧٤ - بديع الزمان للشكعة - نشر دار الفكر العربى بالقاهرة .

٧٥ - بديع الزمان لمارون عبود .

٧٦ - الكامل لابن الأثير - المنيرية ١٣٥٧ هـ .

٧٧ - تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر ١٩٦٠ .

٧٨ - المقامات لشوقى ضيف .

٧٩ - الحياة الأدبية فى العصر العباسى - المؤلف .

٨٠ - تاريخ الأدب العربى لبروكلمان .

٨١ - تاريخ آداب اللغة العربية - لزيدان .

٨٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .

٨٣ - ديوان صفى الدين الحلى .

٨٤ - ديوان الشريف الرضى .

٨٥ _ الرســالة الثانية لأبى دلف ·

٨٦ _ الأعــلام للزركلى _ القــاهرة _ ١٩٥٧ ·

٨٧ _ تاريخ خليفة بن خيــاط _ النجف ١٩٦٧ ·

٨٨ _ وفيــات الأعيان لابن خلكان _ ٣ اجزاء ·

٨٩ _ مجلة قافلة الزيت عــدد المحرم ١٣٩١ هـ _ مارس ١٩٧١ _ مقال عــن ينبــع ·

الى غير ذلك من المراجــع التى اشرنا اليهــا فى هامش الكتــاب والى غير ذلك من المراجــع التى رجعنا اليها ولم نستفد منها كثيرا فى كتــابة هــذا البحــث ·

وبالله التوفيـــق ··

فهرســـــت الكتـــــاب

الموضـــوع	الصفحة
الباب الرابع : أبو دلف الأديب	١٥١
الفصل الأول : أبو دلف كاتبا	١٥٣
الفصل الثانى : أبو دلف شاعرا	١٥٥
الفصل الثالث : أبو دلف نموذجا أدبيا فى مقامات البديع	١٦٧
ملحق : ينبع موطن أبى دلف	١٧٥
أبو دلف والبديع	١٧٨
خاتمة الكتاب	١٨٢
المصادر والمراجع	١٨٤
الفهرست	١٩٠ - ١٩١

صــدر عن مكتبــة الأنجــلو المصرية

١ ـ مدارس الشعر الحــديث ـ د٠ محمد عبد المنعم خفاجي ـ ١٩٩٢ ٠

٢ ـ صور من الأدب الحــديث ـ ٤ اجزاء ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٥٥ ٠

٣ ـ روائع الشعر العربى بين الأصــالة والتجــديد ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٨٧ ٠

٤ ـ كيف تكتب بحثا جامعيا ؟ ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٦ ٠

٥ ـ النحــو لرجال الاعــلام ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٨ ٠

٦ ـ الفــن الأدبى ـ للناقــد الأســتاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ ١٩٦٠ ٠

٧ ـ العقــاد صحفيا واديبــا للدكتورين شرف وخفاجى ـ ١٩٩٠ ٠

٨ ـ موقف النقــاد من الشــعر الجــاهلى : محمــد عبد المنعم خفاجى ـ ١٩٩١ ٠

صــدر حــديثا للمؤلــف

مدارس النقــد الأدبى الحــديث

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٤ لسنة ١٩٩٦
الترقيم الدولى 7 - 1435 - 05 - 977

مطبعــة
أبنــــاء وهبــة حســـان
٢٤١ (أ) ش الجيش ـ القــاهرة
ت : ٩٢٥٥٤٠